الجمهوريــة الجزائريــة الديمقراطيــة الشعبيــة
وزارة التعليـم العالـي والبحـث العلمـي
جامعة محمد خيضر بسكـرة

كليــة الآداب واللغـــات
قسم الآداب و اللغة العربية

قسنطينـــة بيـن روايتـي "الزلـزال" و"ذاكـرة الجسـد"
- دراسـة موازنـة -

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الآداب و اللغة العربية

تخصص: أدب حديث ومعاصر

إعداد الطالبة:
زينب الخنساء ربيع

إشراف الأستاذ:
رضا معرف

السنة الجامعـية: 1436هـ/1437هـ
2015م / 2016م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾

صدق الله العظيم

سورة المجادلة الاية 11

الشكر والعرفان

نتقدم بشكرنا الخالص إلى الأستاذ

المشرف " رضا معروف " على توجيهاته و

مساعدته لنا وإلى كافة أساتذة كلية

الآداب واللغات لجامعة محمد خيضر وكل

الزملاء الذين قدموا لنا يد العون لإنجاز

هذا البحث

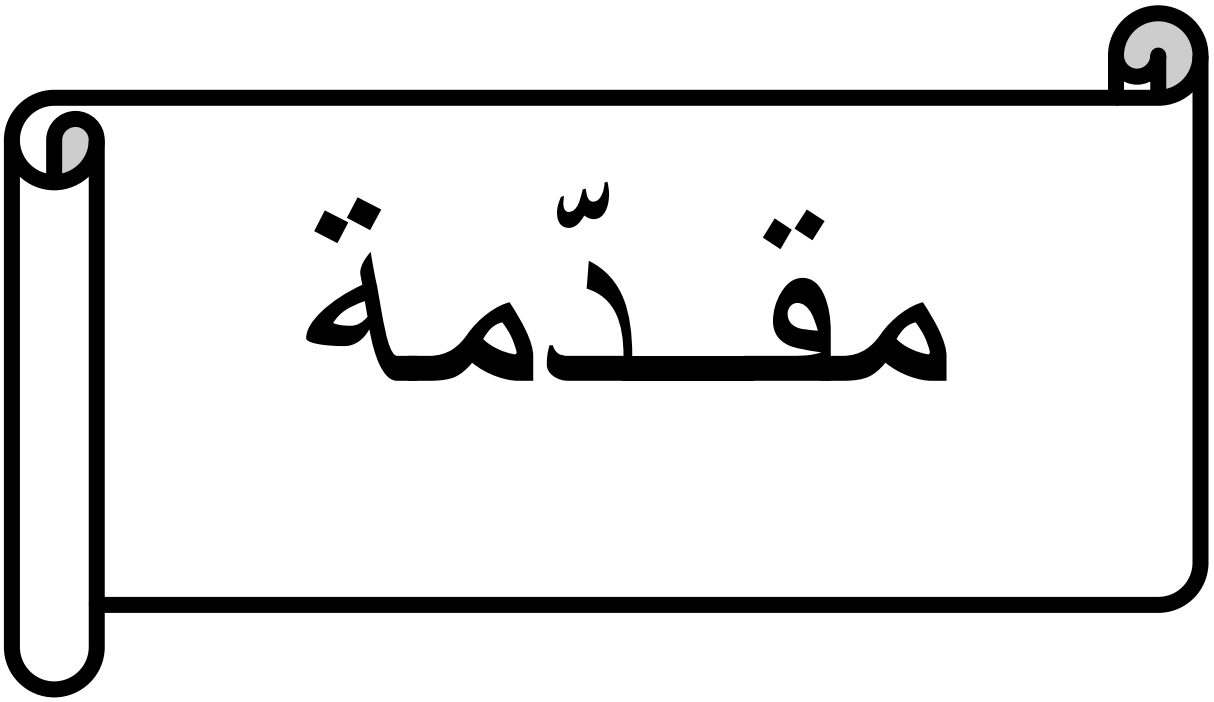
مقـــدّمة

عرفت الرواية خطاب أدبي في القرنين الأخيرين انتشارا ورواجا واسعين، وذلك لما شهدته من قضايا فنية وأبعاد ثقافية ساهمت في اكتمال نضوجها واستقلاليتها، فهي مادة مفعمة بالأحداث تؤطر للزمان والمكان معاً، وتخلق فضاءً هائلا للتشويق والإثارة بإتقان أساليب التعبير والإبداع عبر الالتحام باللغة والتوحد معها، كما أنها أكثر الأجناس الأدبية تدوينا لحياة الإنسان، فالرواية تمثل شاشة عريضة لما يجري في المجتمع وذلك لما تحفل به من أحداث وأمكنة وشخصيات، فهي تتشابك مع الواقع لتجسده بنظرة مختلفة، مجتاحة بأشكالها وأساليبها المتنوعة جميع الميادين الحياتية: السياسية، الاجتماعية، الثقافية، الفكرية.....دون أن تغفل أي جانب من الجوانب.

كما نجد الرواية الجزائرية هي الأخرى على الرغم من جدتها وتأخر زمن ظهورها إلا أنها استطاعت النهوض بنفسها وفرض وجودها في الساحة الأدبية، فقد عرفت تطورا كبيراً يمس كلا من الشكل والمضمون، هذا ما زاد في وتيرة الإنتاج الروائي، مما جعل النقاد والدارسين يتجهون إليها ويصوبون أنضارهم نحوها،

ونظراً للأهمية البالغة التي يكتسيها المكان في بناء هيكل الرواية عبر تحديد ملامحها وإدراك طبيعتها، أصبح يمثل عالم الرواية بمختلف حقولها البيئية، كما أنّه منطلق الكاتب الذي يعبّر به عن قدراته الإبداعية، محاولا نقل صوره وفق منظوره الخاص ليَكون طُعماً يصل به إلى المتلقي معتمدا في ذلك على الوصف والخيال.

وتبعا لهذا سنحاول الوقوف عند أحد تمظهرات المكان في الرواية، ألا وهو«المدينة» التي أضحت جزءاً لا يتجزأ من الكتابات المعاصرة، حيث تمثل فسحة للكاتب يجد فيها زخماً من التنوع الفني للمواضيع عبر ذلك الفضاء الحضري من هذا المنطلق تسللنا للتقرب إلى قطبين من أقطاب الرواية العربية عامة والجزائرية خاصة وهما:

(الطاهر وطار) في روايته"الزلزال" و**(أحلام مستغانمي)** في رائعتها "ذاكرة الجسد" بحيث عمدت كل من الروايتين إلى نقل مرحلة مهمة من تاريخ الجزائر، ألا وهي فترة ما بعد الاستقلال وذلك عبر مدينة قسنطينة؛ هذه المدينة التي حظيت باهتمام الكتّاب إذ كانت وجهة تتقلب فيها أحداث الكثير من الأعمال الجزائرية، من خلال ذلك الحضور اللافت للمدينة في الدراسات الروائية استقينا موضوع بحثنا هذا «**قسنطينة بين روايتي " الزلزال " و " ذاكرة الجسد" . دراسة موازنة .**» وقد وقع اختيارنا على هاتين الروايتين نتيجة النقل الإبداعي الموفق للواقع القسنطيني بكل حذافيره، والذي لم يقف عند قسنطينة كمكان فقط و إنما أخذ يتجاوز ذلك ليعبر عن كيان أمة بحالها.

ووفقاً لهذا الطرح عالجنا الإشكالية التي صغناها في التساؤلات الآتية: ما المعطيات التي يتكئ عليها الكاتب في تصوير المدينة ؟ وهل استطاعت الرواية الجزائرية الإحاطة بهذا النوع من الكتابات ؟ وكيف احتضنت تصورات كل من "أحلام مستغانمي" و"الطاهر وطار" مدينة قسنطينة؟

وقد اعتمدنا في هذا على المنهج المقارن المرتكز على آليتي الوصف والتحليل الذي ساهم في فك شيفرات النص وشرح جزئياته مع شيء من المنهج التاريخي محاولين الوصول في ذلك إلى المتن الحكائي. ولضبط موضوع الدراسة في إطار محدد وواضح قمنا بتشكيل خطة قائمة على النحو الآتي: فصلين الأول نظري والثاني تطبيقي؛ فجاء الفصل الأول تحت عنوان"**الرواية وتيمة المدينة**"، كان فيه طرح لبعض تعاريف المدينة وتوضيحها كفضاء يتميّز بالانفتاح والتنوع، ومن ثمة تحدثنا عن التمزق والضياع الذي يشعر به الفرد حيال هذا المكان، كما تطرقنا أيضاً إلى تصورات المدينة لدى كتاب الرواية العربية والجزائرية. وفيما يخص الفصل الثاني فقد جاء موسوماً بعنوان " **البعد القسنطيني في الروايتين**"، والذي احتوى على ما يلي من عناصر: قسنطينة الذاكرة، قسنطينة البعد الحضاري، قسنطينة الوجه الآخر وفي الأخير قسنطينة التراث وانتهى البحث بخاتمة اشتملت على بعض النتائج المتوصل إليها. واستندنا في هذا على كثير من المصادر والمراجع أهمها: المدينة الضحلة (تثريب المدينة في الرواية العربية) لصلاح صالح وكذلك كتاب المدينة في الشعر العربي (الجزائر نموذجاً) لإبراهيم رماني، وأيضاً الرواية والمدينة(نماذج من كتاب الستينات) لحسن حمودة بالإضافة إلى كتاب أم الحواضر في الماضي والحاضر لمحمد المهدي بن علي شغيب أيضاً كتاب سطوة المكان وشعرية القص(في رواية ذاكرة الجسد) للأخضر بن السايح.

وكأي بحث أكاديمي لا يخلو عملنا من الصعوبات، ومن بين ما واجهنا في مسيرة تحصيله، قلة المادة التي تنظّر للمدينة في الرواية العربية، بحيث كانت معظم الدراسات تصب في الخطاب الشعري، بالإضافة إلى تشعب الموضوع الذي يتعارض مع ضيق الوقت وقصر مدة البحث.

و في الأخير لا يسعنا إلاّ أن نتقدم بجزيل الشكر للأستاذ الكريم "رضا معرف" الذي كان نعم المشرف، والحمد لله الذي أمدّنا بالعون، نسأله التوفيق والسداد.

الفصل الأول

لرواية وتيمة المدينة

1- تعريف المدينة:

1 ـ 1 المدينة لغة

1 ـ 2 اصطلاحاً

2 ـ المدينة فضاء إبداعي:

2 ـ 1 المدينة الوفرة والتنوع

2 ـ 2 المدينة التمزق والضياع

3 ـ المدينة في الرواية:

3 ـ 1 المدينة في الرواية العربية

3 ـ 2 المدينة في الرواية الجزائرية

1ـ تعريف المدينة:

طرح مفهوم المدينة في عدد كبير من الكتابات الأدبية، فقد تناولها الشعراء والروائيون في أعمالهم الأدبية، وجعلوا منها إطاراً عاماً تتقلب فيه مجريات الأحداث وقد كانت الرواية على وجه الخصوص عنواناً رئيسيا لحياة المدينة،إذ حاولت جاهدة أن تكشف الستار عن كل ما يدور داخل هذا الفضاء الواسع بإيجابياته وسلبياته فالمدينة في الرواية تمثل علامات دالة على المكان بكل مرجعياته، فكلما اتسعت هذه الأخيرة وتفرعت، ساهم هذا الاتساع في خلق مواضيع جديدة للرواية تتلاءم وروح العصر.

ومن الدال جداً أن نشير إلى المدينة في إطارها العام، على أنها تلك الحركة التي ينشطها تجمع سكاني كبير، والتي تأتي على مختلف وسائل التطور والراحة، ما يعكس الفارق بينها وبين القرى والأرياف، باعتبار أن المدينة تمثل مرحلة انتقال في حياة الإنسان، من البساطة إلى حياة تتناسب مع ظروف المجتمع واحتياجاته المادية.

وحتى نفصل أكثر حول مفهوم المدينة لابد من الوقوف على بعض التعاريف اللغوية وكذا الاصطلاحية،فقد تعددت وتنوعت هذه التعاريف بتعدد وتنوع المعاجم والكتب

1-1 المدينة لغة:جاء في لسان العرب لابن منظور قوله:«**(مدن)** مَدَنَ بالمكَان:أقام به، فِعلُ مُماتُ، ومنه المدينة، وهي فعليةٌ، وتجمع على مَدَائِنَ، بالهمزة ومُدْنٍ ومُدُنٍ

بالتخفيف والتثقيل [...] والمدينة: الحِصن يبنى في أَصْطُمةِ الأرض. مشتق من ذلك وكُل أرض يبنى بها حِصْنٌ في أصطُمتِها فَهيَ مدينة »[1]

وجاء في مختار الصحاح: « م د ن-**(مَدَنَ)** بالمكارم أقام وبابه دخل ومنه **(المَدينةُ)** وجمعها **(مَدَائِنْ)** بالهمزة **(مُدنُ)** وقيل هي دينَتْ. أي ملِكَتْ. وفلان **(مَدَنَ)**المدائن تمْدِيناً [...] (ومدْيَنُ) قرية شعيب عليه السلام»[2]

وقد ورد في معجم الوجيز:«**(مَدّنَ)** المدائن: بناها، تَمدَنَ: عاش عيشة أهل المدن وأخذ بأسباب الحضارة. تَمَدْيَنَ: تَمَدَّين، المدينة: الحضارة واتساع العمران. المدينة: المِصْر الجامع.(ج) مَدَائنُ. ومُدُنَ و-: اسم يثرب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم»[3]

إن من خلال هذه التعريفات نستطيع أن نقول: أن المدينة في حدها العام تصب في قالب لغوي واحد، يشير إلى مكان محدد جغرافياً يشغله عدد من الناس.

كما نجد أن للمدينة كمصطلح حظاً وافراً في القرآن الكريم، فقد وردت هذه الأخيرة في عدة سور قرآنية، سنحاول الوقوف على بعض منها للاستشهاد بها وكذا شرح المعنى الذي أتت عليه:

يقول تعالى:﴿ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴿٨٢﴾ ﴾[4]

---

[1] ابن منظور: لسان العرب مادة (مدن)، دار صادر، لبنان، ط1، 1990م، مج 13، ص402.

[2] الرازي: (محمد ابن أبي بكر عبد القادر الرازي)، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، د ط، 1986م، ص258.

[3] مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، وزارة التربية والتعليم، مصر، 1994م، ص576.

[4]سورة الكهف: الآية 82.

« ففي هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة، لأنه قال أولا: ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ وقال هاهنا﴿ فكان لغلامين يتيمين في المدينة ﴾ كما قال تعالى ﴿ فكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك ﴾﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ يعني مكة والطائف، ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز مدفون لهما »[1]

ويقول أيضا: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ ﴿١٩﴾ ﴾[2]

أي«مدينتكم التي خرجتم منها »[3]

كما يقول في سورة أخرى:﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[4]وهنا «يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين»[5]

وقال سبحانه وتعالى في سورة القصص:﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا ﴿١٥﴾ ﴾[6]، وفي شرح هذه الآية« يقول ابن عباس:

---

[1]ابن كثير:(عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي)، مختصر تفسير ابن كثير، تح محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط7، 1981م، ص431.

[2]سورة الكهف: الآية 19.

[3]ابن كثير: مختصر تفسير ابن كثير، ص429.

[4]سورة الحجر: الآية 67 .

[5]ابن كثير: مختصر تفسير ابن كثير، ص 315.

[6] سورة القصص: الآية 15.

وذلك بين المغرب والعشاء وقال ابن المنكدر عن ابن عباس: كان ذلك نصف النهار»[1]

كما يقول عزوجل في سورة النمل: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[2] أي « كان في مدينة ثمود تسعة نفر يفسدون في الأرض، وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم، قال ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة أي الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبحهم الله ولعنهم»[3]

1-2 المدينة اصطلاحاً: بالإضافة إلى المفهوم اللغوي اقتضت منا طبيعة الموضوع أن نجوب في أنساق المعارف، لكي نجمل على مفهوم اصطلاحي يمكن له أن يوصلنا إلى المدينة بكل ما تحمل من دلالات، على الرغم من تنوع مجالات استخدامها.

«إن لفظة مدينة هي لفظة عريقة في استعمالها، متنوعة في دلالاتها ووظيفتها تدل على ما تحويه، فهي مركز لسيادة الدولة، وفي الأحوال كلها لا يمكن أن نطلق هذه اللفظة إلا على المكان المأهول بالسكان المختار في سعة الأرض»[4] وبذلك تصبح المدينة تعكس مرحلة واضحة من مراحل الإنسان، التي يكون بها قد خرج من وسطه الضيق و الذي

---

[1]ابن كثير: مختصر تفسير ابن كثير، ص8.

[2]سورة النمل: الآية 48.

[3]ابن كثير: مختصر تفسير ابن كثير، ص675.

[4]سالم المعوش: المدينة العربية بين عولمتين، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2006 م، ص129.

تمثله القرى والأرياف، ليجد نفسه أمام تفاعل بشري كبير، يستوجب عليه الانخراط فيه ويكون هو الآخر عنصراً مساهماً في هذا التفاعل.

ويشير مفهوم آخر إلى أن مصطلح المدينة « يمتاز في عمومه بتنوع الدلالة والمرادفات التي تقترب من المعنى العام، الذي يفيد موطن الجماعة السياسية ومكان تجمعها، فالمدينة هي البلدة، المصر، الحاضرة، ثم أصبحت مرادفة لمفهوم الدولة، وتخرج القرية, المحلة، والسكة من دائرتها بوصفها تجمعات صغرى لا ترتقي لمستوى المدينة، لكونها حاضرة الاجتماع البشري ومقام الحاكم ومنشأ السلطة، وميدان التجارة والمعاش، وهذه ظاهرة اجتماعية سياسية يتميز بها الإنسان دون سواه من الموجودات»[1]يعنيأن المدينة لا تقف على ذلك التركيز السكاني فقط ، بل هي تتعدى إلى ذلك النظام الاجتماعي والذي تتخلله أطر سياسية تتحكم في هذا النظام، وكذا موارد اقتصادية وتنوع ثقافي، وهذه الهيكلة تقتصر على الوجود الإنساني فقط.

[1]عبد القادر بوعرفة: المدينة والسياسة (تأملات في كتاب الضروري في السياسة لابن رشد)، عالم الكتب الحديث،الأردن، ط1، 2003 م، ص67.

ويذهب حسن حمودة في تعريفه للمدينة « على أنها الموطن الأكبر والأول لوسائل الاتصال والتجارب والتكنولوجيا والممارسات الصناعية والحركات الفكرية والإبداعية فضلا عن كونها المركز السياسي والإداري الأول»[1]

ومن المنظور ذاته تذهب المفاهيم الإسلامية في شرحها وتعريفها للمدينة، إلا أنها تنطلق من الجانب الشرعي والديني لتفسر النظم التي تقوم عليها المدينة، على اعتبار أن « كلمة مدينة ترجع أصلا إلى كلمة **(دين)** وأن لهذه الكلمة بهذا المعنى أصلا في الآرامية والعربية، أي أنها ذات أصل **(سامي)**، وعرفت المدينة عند الآكاديين والآشوريين بالدين أي **(القانون)** كما أن **(الديان)** يقصد بها في اللغة الآرامية والعبرية **(القاضي)**، كما نلحظ تقاطع هذا الشرح مع ما ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، أن كل المواضع التي أطلق عليها لفظ **(المدينة)** كان عليها حاكم وملوك، وتتسم بالصيغة القضائية والدينية والإدارية والسياسية»[2] أي أن المدينة ارتبطت في وجودها بوجود القانون؛ فهو يمثل ركيزة أساسية في بناء المجتمع بحيث يحفظ لكل ذي حق حقه،ويبعث بالاستقرار بين الناس مما يساهم في التطور والرقي« وهكذا يتضح لنا أن المدينة ترتبط بتشكيل الدولة أكثر من ارتباطها بالرقعة الجغرافية المحددة بعدد السكان وكذا المساحة، ثم إنها تضع كل سكانها في كفة واحدة أمام الشرع، ويمكن ربطها بالدولة والأمة والبعد الديني، ويجعل من المدينة ذات نزعة روحية ومعنوية أكثر منها اقتصادية وعرقية، وهذا

[1] حسن حمودة: الرواية والمدينة(نماذج من كتاب الستينات في مصر)، شركة الأمل للطباعة والنشر، د ط، 2000 م، ص21.

[2]محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 1988 م ، ص15.

المفهوم للمدينة أساسه القانوني ثابت في أصوله لكونه مستمد من الشريعة الإسلامية التي تربطه بالحاكم، والانتماء إليها تحدده الحرية وفضيلة العدالة»[1]

كما عبر ابن خلدون عن المدن باعتبارها هياكل «موضوعة للعموم لا للخصوص، ولذا فهي بحاجة إلى اجتماع الأيدي و كثرة التعاون وأنه لا بد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك، [...] وأن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار، ولما كان ذلك للقرار والمأوى، وجب أن يراعي فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها»[2]وهذا يعني أن المدينة عند ابن خلدون لا تأخذ صفة المدينة إلا من خلال إشعار مثبت، ومن ثمة المساهمة والتعاون للوصول إلى المستوى المطلوب، والذي توفر به لقاطنيها كل مستلزمات الاستقرار الحضاري الدائم.

« وقد ربط ابن خلدون خراب المدينة بفساد أهلها فقال: وأما فساد أهلها في ذاتهم واحداً واحداً على الخصوص، فمن الكد والتعب في حاجات العوائد، والتلوين بألوان الشر في تحصيلها، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها، فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والتحيل على تحصيل المعاش من وجهة ومن غير وجهة، ..... فتجدهم أجرياء على الكذب والمغامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور

---

[1]عبد القادر بوعرفة: المدينة والسياسة،(تأملات في كتاب الضروري في السياسة لابن رشد)، ص75.

[2]إيمان غالب شعبان مرقة: المدينة في شعر سميح القاسم، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، 2006 م، ص10، نقلا عن، ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد)، المقدمة، تح علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط3،د ت، ص844.

في الإيمان، والربا في البياعات، إذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها»[1]

وكان من الجدير بنا التأصيل للمدينة عند الغرب، والإحاطة ببعض من جوانبها و زواياها « فقد اعتبر هوميروس المدينة هبة من الآلهة للإنسان ويرتبط مفهومها بالعناية الإلهية، إذ تصبح المدينة الأرضية مجرد نسخة لما هو أصل في مجتمع الآلهة السعداء، والمدينة في التصور اليوناني من ناحية أخرى ترتبط بالنموذج المثالي الذي يتموضع حول أصولها وتطورها والذي يدور في الأصل على ثلاثة عناصر هامة، الجماعة، الأرض، المركز السياسي»[2]

ويربط أفلاطون مفهومه للمدينة بعالم المثل أين يجردها من كل الجوانب المادية، «إذ تتجه نحو الكون لا الأرض، وأن ماهيتها لابد أن تتخذ بالفضيلة والغايات وليس بالسياسة أو الجماعة السياسية»[3]

ويذكر لويس ويرث في تعريفه للمدينة « أن العالم المعاصر لم يعد هذا العالم الذي يتكون من جماعات صغيرة منعزلة من الناس، ينتشرون على رقعة واسعة من الأرض[...] إن المظهر المميز لأسلوب حياة الإنسان في العصر الحديث، هو تركزه في تجمعات هائلة تقام فيها مراكز محددة تعمل على إشعاع الأفكار والممارسات التي نطلق عليها اسم المدينة،.....و المدينة ليست مجرد المكان الذي يعمل فيه الإنسان

[1]إيمان غالب شعبان مرقة: المدينة في شعر سميح القاسم ، ص10، نقلا عن ابن خلدون، المقدمة، ص889.

[2]عبد القادر بوعرفة: المدينة والسياسة(تأملات في كتاب الضروري في السياسة لابن رشد)، ص72.

[3]المرجع نفسه: ص73.

الحديث أو يأوي إليه، بل إنها المكان أو المركز الذي يضبط ويمسك بزمام المبادلة الاقتصادية والسياسية والثقافية، كما قد حدد ويرث عدداً من الخصائص تتميز بها المدينة مثل، اللاتجانس واعتماد عدد السكان الكبير بعضهم على بعض، والطابع الجزئي للعلاقات الاجتماعية، والاتجاه إلى استخدام العقل، والتدبير المنطقي عند السكان»[1]

ومن هنا نستطيع أن نقول أن المدينة وجدت في حياة الإنسان لتلبي حاجياته، ولتنهض به من ظروفه القاسية والبدائية إلى عهد الحضارة، فهي تمثل بوابة كبرى أمام التطور والرقي لتشمل كافة المجالات، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية والسياسية مما يؤسس لحياة أفضل.

2 ـ المدينة بين المدح والذم:

شهدت الرواية في الآونة الأخيرة تنوعاً واضحاً في مواضيعها، وكانت المدينة كإطار مكاني أحد أهم ما شغل أقلام الرواة فسلطوا الضوء عليها و أخذوا ينهلون منها جل كتاباتهم «فالمدينة تعد مكانا أساسياً في تجربة الإنسان وعنصراً تكوينيا شموليا يجسد رؤية الكاتب، فنياً وتاريخياً، ويحيل بما يكتنزه من أبعاد نفسية واجتماعية وثقافية

[1] ينظر إيمان غالب شعبان مرقة: المدينة في شعر سميح القاسم، ص3، نقلا عن حسن رشوان، المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، د ط ، 1982 م، ص44.

وإيديولوجية على مختلف الأمكنة والقضايا الأخرى، فصورة المدينة هي إحدى تجليات رؤية الكاتب إلى المكان»[1] وهكذا تختلف التصورات من كاتب إلى آخر

2 ـ 1 المدينة الوفرة والتنوع: باتت المدينة منفذا يلجأ إليه الكتاب لاستلهام الأفكار،وذلك من خلال التأمل في هذا الصرح الهائل، والذي أضحى منطلقاً لإبداعاتهم، فالمدينة تمثل « الكل تزور الراوي بطرق مختلفة وبوسائل متعددة، حتى تأخذ منه كل شيء بما فيه هو الذي يصبح المدينة أو امتداً لها، تدخل إليه من النافذة، بطرق مختلفة وبوسائل متعددة من المآذن وصوت الباعة [...] حياة معينة تعكس سلوك الأفراد وعاداتهم وتقاليدهم في نموذج فني وإطار جمالي»[2]فالمدينة تحمل جاذبية لا يشعر بها الفرد إلا بعد تمكنها منه.

« فهي تمثل تجربة حضارية شاملة، تنعكس أثارها على مختلف الظواهر الجمالية، فتحمل في طياتها الجدة والتحول، التعدد، الشمول، الرمزية، الدرامية، الذاتية والمستقبلية، ولعل وصف الزاهري للمدينة يعد شاهداً كافياً في تحديد طبيعة صورة المدينة، عبر جمالها الطبيعي الساحر، فهو يمدح مدينة " الجزائر" من خلال الجبال والبحر ثم بعض الأحياء [...] و يتوسل في رسم هذا الجمال بالتشبيه الحسي المباشر»[3] كذلك لابد من

---

[1]إبراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي (الجزائر نموذجاً 1962 ـ 1925)، دار هومة، الجزائر، ط2 ،2001 م، ص8.

[2]الأخضر بن السايح: سطوة المكان وشعرية القص(في رواية ذاكرة الجسد)دراسة في تقنيات السرد، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011 م، ص165.

[3]إبراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي(الجزائر نموذجاً 1962 ـ 1925)، ص262.

الإشارة إلى جانب آخر في المدينة ألا وهو « الوفرة والتنوع بإطلاق الدلالة هما اللذان يجعلان من المدينة مدينة، فوفرة الأبنية ووفرة الشوارع والساحات والسلع، الفنادق، المستشفيات ووسائل الترفيه واللهو[...] إنها السبيل الأنجح لتحقيق الغرض بين البشر.

ومن هذا المنظور حملت الأسطورة معنى المدينة وذلك عبر«"**إنكي وإنانا**" إذ ترحل إنانا من مدينة "**إيدو**" لمقابلة الإله إنكي، وهدف الرحلة هو رغبة إنانا بالحصول على ألواح نواميس الحضارة [...] وكان معروف مَن امتلكها مِن الشعوب حاز قصب السبق في ميدان الحضارة»[1] فهذه الوفرة التي تمتلكها المدينة دون القرى والدواشر، تجعل من الكاتب في ذهول وإعجاب، ما يساهم في نمو وتطور كتاباتهم وكذا تألقها.

ويذهب عالم الاجتماع جورج سمل إلى وصف أحد المدن فيقول: « مدينة متوجة من شوارعها المزدحمة والمواصلات المكتظة الكبيرة، استمدت صحتها وقوتها من سواحلها الرطبة الداكنة الضبابية [...] وفروعها الملتوية، إنها ممجدة بانعكاس المصابيح على الأرصفة المبتلة.

كما نجد تشارلز إبرامز هو الآخر محباً للمدينة ومشيداً بها يقول: إن المدينة هي المنتوج النابض لليد والذهن البشري، عاكسة لتاريخ الإنسان وصراعه من أجل الحرية، ومن أجل

---

[1] صلاح صالح: المدينة الضحلة (تثريب المدينة في الرواية العربية)، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ط1، 2014 م، ص63.

إبداعه، إنها اللوح الذي تُكتب عليه قصة الإنسان [...] إنها تكوين متداخل من التجارب،الطموحات، الصور،الذكريات»[1]

2 ـ 2 المدينة التمزق والضياع: لطالما كانت المدينة المكان المناسب للكثير من الناس الذين يجدون فيها ملاذهم، بحيث يبدعون في التعبير والوصف إعجاباً بهذه الحضارة الأخاذة، لكن هذا لا يمنع من وجود جانب آخر من الناس الذين يعتبرون المدينة عالماً لا وجود للنهار فيه، يجتاحه الفساد والانحلال وتتقاطع فيه التناقضات، عالم تختفي فيه كل آثار القيم ، وتغيب فيه جل ملامح الإنسانية، وهكذا تنتهي « المدينة إلى مجمعاً للصفات السلبية ومساحة للغياب والموت، وهذا موقف الذات من المدينة، من خلال الوعي الحاضر بالمدينة على مختلف المعاني السلبية، المتواترة ، المترادفة، المتكاملة في حقل دلالي واحد(الفقر، النفاق، الخديعة، الفساد، الاستلاب، القهر، الذل، الانكسار الخراب، التشرد، النفي، الاعتقال، الغربة، العقم، الضياع، القبر، السكون، التلوث) وما هذا سوى موقف الصدام، والرفض وخروج الذات من المدينة وعجزها على إقامة علاقة ألفة وتكامل معها»[2]خصوصا بعد تلك الصورة التي طبعتها القرى والأرياف عن المجتمع البسيط المتآلف على الرغم من ضيق المكان والظروف الشحيحة القاسية.

« ففي ذلك الاكتظاظ للمدن تعم الفوضى وتتباعد المسافات بين الغني والفقير وتنموا، وتفقد هياكل هذه المدن متانتها وتنحوا نحو الهزال بسبب الأحياء الفقيرة المتكاثرة ويدب

---

[1]عبد الكريم الجبور: الإبداع في الكتابة والرواية، دار الطليعة الجديدة، سوريا، ط1، 2003 م ، ص259.

[2]إبراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي(الجزائر نموذجا 1925 ـ 1962)،ص258.

الفساد جراء مراعاة جميع المصالح باستثناء الفقراء، من هذا المنظور بدأت المدينة تسوء في خيال كتاب الرواية الذين رأوا فيها جحيماً أرضياً»[1]ومن هذا القبيل يشرع الكاتب الأمريكي ميلفل في وصف المدن فيقول:« المدن دون تميز شريرة قاسية دون تأنيب ضمير، غير مبالية، إنها النقص والحرمان، قاتمة ومزدحمة جوفاء وبلا قلب»[2]

والملاحظ في المدن أنها حطت من مستوى الإنسانية وأخذت تصور الناس « كالقطط المشردين، فمنهم من يبحث عن لقمة العيش من خلال التهريب، ومنهم من يتسول الناس لسد رمقه وإرواء عطشه،ومنهم من يبحث عنها في أكياس القمامة ومع هذا الواقع المرير، لا يملك الكاتب خياراً إلا أن يعبر بكلماته الحزينة، في ظل هذا الواقع الذي تكثر الجرائم فيه وتتعدد أشكال النصب والاحتيال واغتصاب الأموال، فتغنى فئة صغيرة على حساب معظم الناس الذين يعيشون أوضاعاً مأساوية»[3] وهكذا أضحت المدينة بؤرة معاناة للناس عامة وللكاتب خاصة، مما أدى إلى عزلته و تنحيه ، يقول عز الدين إسماعيل في هذا الصدد: « ولعله من الواضح أن الشعور بالوحدة ليس مجرد أثر لانقطاع علاقة عاطفية إنما هو انعكاس كذلك لوجه الحياة في المدينة ويتبع هذا الشعور بالوحدة ويلازمه الشعور بالضياع»[4]

---

[1]عبد الكريم الجبور: الإبداع في الكتابة والرواية، ص257.

[2]المرجع نفسه: ص258.

[3] علي العلوي: الذات المغتربة والبحث عن الخلاص، دار الوطن، المملكة المغربية، ط1، 2013 م ، ص161.

[4]عبد الله رضوان: البنى الشعرية(دراسات تطبيقية في الشعر العربي)، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، د ط، 2005 م، ص21، نفلا عن عز الدين إسماعيل، الشعر العربي العاصر قضاياه وظواهره ، ص325.

ومن جهة أخرى تأخذ هذه المشكلة في الاتساع والتفاقم« ونرى أننا لسنا أمام حالة سلبية فقط بل هو خراب يصل إلى درجة الإدانة الكلية والقاسية لمجتمع المدينة بمجمله، وهو خراب نفسي دلالي وليس خراب بالمفهوم المادي المباشر، وذلك أن هذه البنايات والشوارع المضيئة إنما تؤدي إلى خراب الداخل الإنساني، خراب الجوهر عبر خارج مبهر متميز مادياً وداخل مصادر خَرُبَ، يقتل الإنسان ويشيع الحزن فيه بحيث يصبح الخراب والحزن هما العاملان المسيطران على إنسان المدينة»[1]

وعلى امتداد الزمن ظل كتاب الرواية مُصرين على وصف المدينة على أنها المتاهة التي لا يعرف لها المرء مخرجاً، « فقد تناول " ضياء الشرقاوي" في روايته **(مأساة العصر الجميل)** المدينة باعتبارها سجن يستعبد الأوصال المتصلة بالطبيعة الحية، ويمزق الصلات بين الفرد والآخرين، وينفي القدرة على الحركة في الأماكن»[2]فهي تجسيد لمعنى الانحلال الحقيقي في كل المواقف الحياتية، أين يجد الإنسان نفسه في حلقة مغلقة تتشكل من عناصر، وكل عنصر فيها لا يرتبط بالآخر.

وينتقل " بهاء طاهر" في رواية **(شرق النخيل)**«إلى تصوير حياة طالب يدرس في قسم اللغة الإنجلزية، بجامعة القاهرة، المستسلم لغواية الشراب واللعب المحبط وللرسوب بالدراسة، القادم من قرية جنوبية الموشك دوماً على الانهيار الجسدي بسبب البرد والوحدة، فهو يعاني تجربة الغضب في المدينة وانخراطه فجأة في تيار هذا

---

[1]عبد الله رضوان: البنى الشعرية (دراسات تطبيقية في الشعر العربي)، ص27.

[2]حسن حمودة: الرواية والمدينة(نماذج من كتاب الستينات) ،ص 237.

الغضب»[1]فالمدينة تمثل عالماً مبهما وغير مفهوم، فبعد ما كانت هذه الأخيرة بالنسبة لهذا الطالب مكاناً لرقي والانفتاح و العلم، انتهت به إلى الغير متوقع ألا وهو الفساد والضياع والانكسار.

وفي رواية أخرى تحت عنوان«**(الفلاح)** يُنضر للمدينة على أنها مقر السلطة المرادفة للتحكم والظلم، ومقر السجن، وعلى أنها غول ووحش خرافي يتلون ويبهر، حتى يسحر الناس ويفقدهم وجودهم، فليس في المدينة إلا الضياع كما سماها يوسف إدريس النداهة[*]والتفت إليها إبراهيم الحردلو ولعنها وتبرأ منها (ملعون أبوكي بلد)»[2] وفي هذا دليل على أسلوب المدينة في إغراء الناس دون إدراك منهم فهي تمثل المكان الذي بقدر ما يعطيك يسلب منك.

3 ـ المدينة والرواية:

تثير الرواية وكغيرها من الخطابات الأدبية عدة مواضيع، ولعل المدينة أحد أهمها، فمدينة الرواية تمثل مرآة عاكسة للواقع كما هو، بالإضافة إلى أن الرواية في الزمن القريب أصبحت لا تخلو من المدينة، وذلك لأنها تزيد من فضاء التخيل وبراعة الوصف، ثم إنها غدت الروح الذي تحيا بها الرواية خصوصاً بهذا التعدد والتنوع للمدن، مما يفسح المجال

---

[1]حسن حمودة: الرواية والمدينة(نماذج من كتاب الستينات)، ص 247 . 246.

[*] النداهة: حيوان خرافي أو غول يزعم الريفيون أنه يظهر في صورة امرأة جميلة، يسحب ضحيته إلى الخلاء حيث لا يعثر أحد لها على أثر.

[2]محمد حسن عبد الله: الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 2001 م، ص185 .186.

أكثر أمام الكتاب، وانطلاقاً من هذا سنحاول رصد بعض الأمثلة الروائية التي عنيت بالمدينة.

3 ـ 1 المدينة في الرواية العربية:ونستهل الذكر بالرواية في المملكة العربية السعودية« وعلى الرغم من أنها لم تزل في المهد صبية مقارنة بالشعر والقصة القصيرة فإن الأعمال الروائية القليلة التي صدرت تشهد بأن المبدعين السعوديين لديهم القدرة الفنية والرغبة الأكيدة في هذا العالم الأدبي الفني، ولعل هذا القول ينطبق على رواية **(سقيفة الصفا)** للكاتب الراحل " محمد بوقري " الذي أجاد فيها رصد البيئة المحلية في مكة المكرمة وتحولاتها، من خلال السرد الحي لحياة بطل الرواية **(محيسن البلي)** ثم إن ما يشدنا في هذه الرواية هو المكان الذي أجاد الكاتب في نسجه وأعتقد أنه لو كان مؤلف الرواية غير مكي أو لم يعش طويلا في مكة المكرمة لما كان في استطاعته أن يقدم لنا روايته على هذا النحو الفريد»[1]

ومن الجدير بالذكر على أن المدينة في الرواية المصرية كانت حاضرة بقوة، بحيث جابت هذه الأخيرة الكثير من المدن المصرية، منها رواية "إبراهيم عبد المجيد" **(لا أحد ينام في الإسكندرية)** والتي تؤرخ فنياً، لحقبة من أهم الحقب التي مرت على المدينة في عصرها الحديث، وهي حقبة الحرب العالمية الثانية من خلال الشخصية الرئيسية في الرواية **(الشيخ مجد الدين)** الذي طرده العمدة من قريته وأرضه، بسبب أفعال أخيه، فلم يجد بُداً

[1] ينظر أحمد فضل شبلول: الحياة في الرواية العربية، (قراءات في الرواية العربية والمترجمة)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، د ط، 2001 م ، ص65 ــ 66.

من أن يهاجر إلى الإسكندرية، حيث يقطن أخوه الهارب، وهناك تفتح له الإسكندرية إليه ذراعها، وتبوح له ببعض أسرارها»[1]

وفي المدينة نفسها تتمحور رواية " صالح مرسي "«**زقاق السيد البلطي**) الزقاق الذي كان جزءا من تكوين المدينة الشرقية، وهذا الزقاق الذي يقترن في الرواية بمدينة ساحلية مسماة الإسكندرية في زمن مرجع بعينه (بداية الثلاثينيات من القرن العشرين) يمثل إطارا جمعياً يفصل عالمه عن كل عالم آخر، ويؤكد شعورا واضحا بالانتماء بداخله، بحيث يبدو هذا الزقاق مستقلا بأعرافه وتقاليده، وخرافاته وأساطيره وأحلامه وهمومه [...] والزقاق في الرواية بهذا المعنى يستعيد دلالته في المدينة الإسلامية القديمة »[2]وهذا يؤكد عراقة المدينة في الرواية العربية.

ومن خلال الوجه الآخر للمدينة «تقدم لنا روايات " علاء الديب "(**القاهرة**)(**الحصان الأجوف**)،(**زهرة الليمون**)،(**أطفال بلا دموع**)،(**قمر على المستنقع**) نموذجا لاغتراب متعدد المستويات في المدينة الحديثة والتي ترسم بعلاقاتها وبأمكنتها صورة للخواء الكامل الذي يوازيه هذا الراوي المتوحد الوافد إلى المدينة، حيث تنطوي رواية (**القاهرة**) بدءاً من شخصية (**فتحي**) الشخصية المحورية والتي يتحرك الراوي مقترناً من عالمها الداخلي يمثل تكثيفاً فنياً لما تفعله المدينة الحديثة بضحاياها، [...] يعيش في هذه المدينة دون أن يفهم

---

[1] المرجع نفسه: ص 39.

[2] حسن حمودة: الرواية والمدينة(نماذج من كتاب الستينات)، ص136.

أين هو من هذا العالم، ولا ماذا يريد؟ اللحظة التي يعيشها الآن لا وزن لها ولا معنى معزولا عما حوله و عمن حوله في زحام هذه المدينة لا شيء يربطه بكل هذا القطيع »[1]

ظلت المدينة تتوالى في كثير من الروايات، " فالإلياس الخوري " وروايته **(أبواب المدينة)** اهتم فيها بكل ما يخص المدينة، فقد صور لنا مدينة ذات طابع عمومي، أو مطْلق،فيها من بيروت كل شيء ، وفيها من سوى بيروت كل شيء أيضا، وفيها من الحاضر الراهن كل شيء وفيها من العمق التاريخي لمدائن المنطقة المسلسلة في التاريخ كل العمق التاريخي أيضاً، بحيث كانت المدينة هي بيروت المتاهة أو كانت بيروت هي التكثيف المزدوج للزمان والمكان في نص فريد أمضاه سارده في محاولة العبور باتجاه باب من أبواب المدينة، من غير أن يعرف القارئ فيها إذا كان قاصد الباب يقصده من أجل الدخول أو من أجل الخروج، فالمدينة لم تكن مجرد عمارات و قصور ودروب وساحات ومنشآت عامة، بل كانت أيضاً فيافي وصحاري و مفازات يمضي فيها المرء عمره في سبيل الفوز بالنجاة»[2] يتجه إلياس في روايته قائلا:

« مشى و مشى ولم يجد ساحة المدينة كانت الشوارع تقود إلى الشوارع والأزقة تنتهي إلى أزقة ، حاول أن يسأل لكنه فوجئ بأن لا أحد يجيب عن أسئلته، سأل رجلا، نظر إليه

---

[1] المرجع نفسه: ص162 .

[2]صلاح صالح: المدينة الضحلة(تثريب المدينة في الرواية العربية)، ص180.

الرجل طويلا ومشى، سأل امرأة لم تتوقف لتستمع إلى سؤاله، شعر الرجل الغريب بأنه غريب في مدينته.لكنه قرر أن يتابع المسير و أن يتابع السؤال»[1]

كانت هذه بعض المرويات للمدينة في كنف الرواية العربية بعيون مجموعة من الكتاب الذين أصابوا في وصف الأمكنة بدقة شديدة، وكيف لهذه الأمكنة أن تؤثر في نفسية قاطنيها ومن كانوا مجرد زوار لها.

3 ـ 2 المدينة في الرواية الجزائرية:لم تخلوا الرواية الجزائرية في نسيجها من المدينة في عمومها، فقد تطرق إليها بعض الروائيون من خلال أعمالهم، إلا أنه كان حضوراً محتشماً، حيث كانت القرى والأرياف هي السباقة والمسيطرة على هذا الفن الأدبي، وذلك راجع إلى عدة أسباب قد يكون منها أن أغلب كتاب الرواية هم أبناء القرى والأرياف، أو ربما أن هذه الأخيرة تحفل بأحداث غائرة أيام الفترة الاستعمارية أو العشرية السوداء، ضف إلى ذلك إلى أن هذه الأمكنة لها حياتها الاجتماعية الخاصة، هذا ما جعل الروائيون ينجذبون لها ويصبون اهتمامهم عليها، وقد خصصنا بعض الروايات الجزائرية لتكون أمثلة على المدينة في الرواية، ولعل رواية**(الرماد الذي غسل الماء)** « رواية المدينة بكل ما تملكه المدينة من شخصيات متناقضة، ومتداخلة، وبكل ما تحويه المدينة من علاقات اجتماعية، متفاوتة ومتعارضة و متداخلة»[2] إذ تقول

---

[1] المرجع نفسه: ص180، نقلا عن إلياس خوري، أبواب المدينة، ص35.

[2] قمرة عبد العالي: البنية الزمكانية في رواية الرماد الذي غسل الماء لعز الدين جلاوجي (دراسة تحليلية تأويلية) رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012 م ، ص108.

الرواية:«مدينة عين الرماد كالمومس العجوز، تنفرج على ضفتي نهر أجدب أجرب تملأه الفضلات التي يرمي بها الناس والتي تتقاذفها الرياح.....تتدحرج فيها البنايات على غير نظام ولا تناسق [...] قيل إن السكان قد هجروها ثم اتخذوها مزاراً و معبداً... وتمتد المدينة من الجهة الأخرى مرتفعة قليلا ثم مستوية [...] وتمتلئ مدينة عين الرماد بالحفر، وببرك المياه القذرة، يتوسطها سوق منهار السور.....تتلوى شوارعها وأزقتها التي تضيق وتتسع في غير نظام [...] الفرنسيون يوم أسسوا المدينة التي سموها la belle (ville)»[1]

وهكذا نستطيع أن نقول:بأن: « الملاحظ في بعض النماذج التي وقع عليها سرد المدينة الجزائرية، أن المدينة بوصفها مكاناً بؤرياً أو ثانوياً لمجريات الزمان والأحوال و الأحداث وعيش الشخصيات، تكاد أن تكون غير موجودة، وكأن الرواية التي تتخذها مكاناً إطاريّاً رواية من غير مكان، وهذا ما نجد جلياً في رواية **(تجربة في العشق)**" للطاهر وطار " إذ تبدو الرواية تسرد أفكاراً وتأملات، وحياة يومية مكررة لمثقف يعمل في وزارة الثقافة ، و هي [...] تتأطر بمدينة الجزائر، لكن المتوضّع فيها من كل المدينة يكاد أن يقتصر على أحد الشوارع المزدوجة المسورّة بأعمدة الهاتف،وضجيج السيارات، ويقع فيها ذلك المثقف السارد بضمير الأنا فريسة عشق عمود بذاته من أعمدة الهاتف [...] هو العمود الذي تنتقل عبره الاتصالات بن مختلف بقاع العالم»[2]يقول "الطاهر وطار" في هذه الرواية:

---

[1]عز الدين جلاوجي:الرماد الذي غسل الماء، دار الروائع للنشر والتوزيع، الجزائر، ط4، 2010 م ، ص11.

[2]صلاح صالح: المدينة الضحلة (تثريب المدينة في الرواية العربية)، ص302.

«أشبعك كذباً عن مغامرات الصبا والشباب، وحكايات عن عواصم الدنيا، أصف لك تاج محل، وبيتاً كوبياً انفتح فجأة، ودعاني صاحبه لتناول فنجان قهوة وقدح روم. عن حنان الأم في موسكو.عن غِيرة الرجل في بغداد.وعن حَلبية رأيتها في مطعم بدمشق»[1]

وقد اجتاحت المدينة روايات "واسيني الأعرج"هو الآخر إذ نجدها « تتعدد في رواية **(كتاب الأمير)** إلا أنها ارتبطت أولا وأخيراً بفضاء خاص للأمير و من هم حوله وعلى رأس هذه المدن مدينة، معسكر»[2]فنجده يقول في الرواية: «من بعيد تبدو مدينة معسكر ببناياتها الجيرية غير المنتظمة. كومة من الحجارة ، ذات ألوان بيضاء وترابية حائلة تتراص ثم تنفتح مخلفة بين الكومة والكومة فضاءات وهواءات من الخضرة أو التربة الحمراء. تنام على حافة السلسلة الجبلية التي تحيط شمالا بسهل اغريس الذي يمتد على مرمى البصر و وادي تودمان الذي يتبدد عند مخارج المدينة في شكل سواق صغيرة حتى يتضاءل نهائيا لينطفئ داخل الحدائق والمزارع الكثيرة التي تحيط بالمدينة [...] ومعسكر تطوق نفسها بسور قديم بعرض خمسة أقدام و علو يصل إلى تسعة أمتار و بحصن مثلث الجوانب في المرتفعات المحيطة بالمدينة»[3]

---

[1]المرجع نفس:ص303، نقلا عن الطاهر وطار، تجربة في العشق، مؤسسة غيبار، قبرص، ط1، 1998م ، ص259.

[2]فضيلة بولجمر: هندسة الفضاء في رواية كتاب الأمير لواسيني الأعرج، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010/2009م ، ص67.

[3]واسيني الأعرج: كتاب الأمير، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، ط1، 2004 م، ص65.

كما كان للمدينة في الرواية الجزائرية منحى آخر وذلك من خلال « تمويتها عبر تشيئها ورهنها لمصلحة عدد من ذوي النفوذ المالي والسياسي، بحيث جعلت رواية(**العشق والموت في الزمن الحراشي**) كل شيء في المدينة قابلا للبيع والشراء، عبر استشراء ظاهرة تسليع الإنسان والمواقف والمبادئ والمناصب»[1]تقول الرواية:«العاصمة كما في غيرها من باقي مدن الله كل شيء بثمن ليس هنا أي شيء بلا مقابل »[2]

وتباشر رواية (**يصحو الحرير**)" لأمين الزاوي "« في اتخاذ نسق التمويت للمدينة، كحالة استغلال الإنسان للإنسان، وسحقه وقتل إنسانيته»[3] يقول في الرواية:«ذهبت مع الريح الحامضة التي لا لون لها، حين بدأت البحث عنه هب رجال آخرون عسكريون ومدنيون لأكلي دون مقبلات مصمصوني بعيونهم التي فيها أنياب كثيرة ومخالب نسور من فصيلة الحمير »[4]

في رأى مدحضٍ لهذا، يعتبر أن المدينة « غدت الفضاء الأكثر جاذبية للذات الحالة في الانتقال والتحول إلى بيوتها وشوارعها، ومختلف جزيئاتها التي تتوق النفس لبلوغها حتى تتخلص من سكونية القرية التي تحد من فاعلية الشخصية في الإعلان عن وجودها دون

---

[1]صلاح صالح: المدينة الضحلة (تثريب المدينة في الرواية العربية)، ص310.

[2]المرجع نفسه: ص310، نقلا عن الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، دار ابن رشد، بيروت، ط2، 1983 م ، ص312.

[3]المرجع نفسه: ص312.

[4]صلاح صالح: المدينة الضحلة (تثريب المدينة في الرواية العربية)، ص 312، نقلا عن أمين الزاوي، يصحو الحرير، ص85.

ضغوطات تجبرها على الرضوخ والانزواء»[1]يقول "عبد الحميد بن هدوقة" في رواية **(غدا يوم جديد)**« هناك وراء ذلك الأفق البنفسجي تقع مدينة الجزائر[...] هذه المدينة التي هبلت فتيات القرى وشبانها، كلهم يودون مهاجرة قراهم إليها كما لو أنها الجنة»[2]

و هكذا ندرك أن حياة المدينة استطاعت أن تلوح بتأثيرها في حياة الرواية إذ يجد الكاتب نفسه في امتداد لها، فتكون بمثابة متنفس له ولأفكاره.

[1]نبيلة بونشادة : بنية النص السردي في رواية(غدا يوم جديد) لعبد الحميد بن هدوقة، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005/2004 م ، ص134.

[2]المرجع نفسه: ص 134، نقلا عن عبد الحميد بن هدوقة، غداً يوم جديد، منشورات الأندلس، الجزائر، 1992 م ، ص92.

الفصل الثانـي

البعد القسنطيني في الروايتين

1 ـ قسنطينة الـــذاكـــــرة:

1 ـ 1 الصخرة

1 ـ 2 سيرتا

1 ـ 3 صالح باي

1 ـ 4 ابن باديس

1 ـ 5 المساجد والأولياء الصالحون

1 ـ 6 البيت العائلي

2 ـ قسنطينة البعد الحضاري:

2 ـ 1 الجسور

2 ـ 2 الشوارع

2 ـ 3 المقاهي

3 ـ قسنطينة الوجه الآخـــر:

1 ـ 3 السجن

2 ـ 3 المقبرة

3 ـ 3 المزبلة

3 ـ قسنطينة الوجه الآخـــر:

1 ـ 3 السجن

2 ـ 3 المقبرة

3 ـ 3 المزبلة

3 ـ 4 واد الرمال

4 ـ قسنطينـــة التـــــــراث:

4 ـ 1 الأغنية الشعبية

4 ـ 2 الحكاية الشعبية

4 ـ 3 المثل الشعبـــي

4 ـ 4 اللبـــــاس

1 ـ قسنطينة الذاكرة:

على صخر كلسي شيدت وبجسور شدت ضفافها مدينة حاكت تاريخها عبر مراحل أزمانها « هي مدينة قسنطينة من بين المدن القديمة بشمال إفريقيا [...] موجودة منذ القرن العاشر قبل الميلاد القائمة على جبلها الصخري على العدوة الغربية من واد الرمل »[1] والتي لها سيمات عديدة نصادفها في ثنايا الرواية منها:

1 ـ 1 الصخرة: مدينة الصخور كما يلقبونها، أصل هذه التسمية يعود إلى الصخر العتيق الذي تتربع عليه المدينة منذ الأزل المليء بالتاريخ و الأسرار والمعرفة، وإذا ما أردنا أن نُفصل أكثر في هذه الصخرة التي تعتبر رمزا لمدينة قسنطينة و جوابا لكل من يسأل عن حيثيات هذه المدينة نقول: أنها « تتألف من مجموعة ركام الجص الأبيض ، ركام الجص الأغبر المثقوب، من أصل مواد عضوية وتسميته العامة الحجرة الزرقاء، وكذلك من ركام الجص الأشهب اللامع » [2]

وقد استعانت الرواية بالصخرة لتجسد لنا أهمية هذه الأخيرة في الذاكرة القسنطينية ، فقد كانت الصخرة بمثابة الكلمة المفتاحية التي انطلق من خلالها الراوي في رواية " الزلزال " ، فكان كل مرة يكررها إذ نجدها متداولة تقريبا في معظم الصفحات

---

[1] كمار غربي: المساجد والزوايا في مدينة قسنطينة الأثرية ، دار ذاكرة الناس للنشر، د ط ، 2012 م، ص 23 .

[2] محمد المهدي بن علي شغيب: أم الحواضر في الماضي والحاضر ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، د ط ، 1980 م ، ص 22 .

« **تحملنا وإياكم صخرة ، يعمل الماء فيها عمله من كل جانب ، الله أعلم بما في باطنها من تجاويف ، ومن أكلاس متذاوبة ، يمكن في كل لحظة أن تعلن بطريقتها الخاصة عن استثقالها لنا...**» [1] ففي هذا تأكيد على تموقع المدينة فوق هذا النصب الصخري الهائل. كما يقول الراوي في موضع أخر: « **آه فوق هذه الصخرة المخربة بالطرقات والأنفاق تقوم مدينة يسكنها نصف مليون من البشر وتسير في شوارعها العربات والشاحنات ، ملآ بالبضائع** »[2]

فالإنسان يقيم على هذه الصخرة منذ عهود قديمة على الرغم من وعورة مكانها إلا أنه يحاول أن يصنع لنفسه كل ما يمكنه من الاستمرارية « **ونحن ماذا نفعل نحتشد فوقها الصخرة المتذاوبة . نكدس الزيت والسكر والصابون والقهوة والدقيق ونلد و نلد** »[3]

فهذه الصخرة التي يشكو الراوي بالنيابة عنها « تمثل شكلا هندسيا مأخوذا من قاعدة شبه المتفاوت الأضلاع ، وقد أحدث جريان السيل عمقا بالجزء الجنوبي الشرقي ، بينما توجد معظم منحدراته الوعرة بالجزئين الشمالي الغربي والجنوبي الغربي من الوادي ، وهناك يمتد برزخ على طول ثلاثمائة متر بالسفح موالي للكدية ، وقد عملت يد الإنسان في

---

[1] الطاهر وطار: الزلزال ، دار موفم للنشر ، الجزائر ، د ط ، 2004 م ، ص 25 .

[2] الزلزال: ص 35.

[3] الزلزال: ص 140.

الجبل الصخري فأزالت منه نحو ستين مترا عرضا وما يقرب من كلم واحد طولا عبر الصخور لفتح الطرق و إقامة جسر سيدي راشد »[1]

وهكذا يتبين لنا أن للصخرة مكانة غائرة في نفس كل قسنطيني فهي تمثل موطن الأصل ، وإذا ما عدنا إلى رواية " ذاكرة الجسد " نجد خالد بن طوبال يقول: « **ها نحن نعود إليها معا ... أحدنا في تابوت والآخر أشلاء رجل، وقع حكمك عليّ أيتها الصخرة... فأشعري مقابرك وانتظريني** »[2]

فهذه الصخرة تمثل قرينة متعددة الرموز لا تكتفي بأن تكون مجرد برج صخري يحمل المدينة « **يا امرأة متنكرة في ثياب أمّي ...في عطر أمّي وفي خوف أمّي عليّ... متعب أنا ... كجسور قسنطينة معلق أنا مثلها بين صخرتين وبين رصيفين** »[3]

ففي هذا السياق إشارة أن هذا المكان الذي يمثل الصخر العتيق له وجه آخر، يهابه سكان المنطقة ، الوجه الغامض الذي يخشون تقلبه ، ويعبر عن جزء من معاناتهم « فقسنطينة هي الأم ،الصخرة التي لا تبالي ولا تتأثر و لا تبكي فهي قاسية قساوة الصخرة التي تحملها، وقد يقوم النص باللجوء لتصوير المكان بالبلاغيات عندما يكون للمكان دلالة نفسية أو رمزية ، وذلك في سبيل أداء قدرة تصويرية تعطي المكان

---

[1] محمد المهدي بن علي شغيب: أم الحواضر في الماضي والحاضر ، ص 22.

[2] أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد ، دار الآداب ، بيروت ، ط 27 ، 2011 م ، ص 391 .

[3] ذاكرة الجسد: ص 377.

أهميته ... أي تخلق اللغة معادلات نفسية تضيء العالم الداخلي للروائي العالم الذي يمثل المكان ، وتبرز العلاقة المصيرية بين المكان ومنتج النص و القدرات الإبداعية الإيحائية التي ساعد المكان على خلقها وبثها في ذهن المبدع وروحه »[1]

ولا شك أن الصخرة دائما تأخذ الصدارة في تقديم المدينة أو التعريف بها، فهي تحتل ـ الصخرة ـ موقعا مركزياً « أين تتوسط مدينة قسنطينة بين جزء شرقي و جزء غربي [...] ويربطها بالجزء الشرقي أربعة جسور وهي : جسر سيدي مسيد ، وجسر ملاح سليمان وجسر سيدي راشد وجسر القنطرة ، بالإضافة إلى ممر ساحة الشهداء الذي يربط المدينة بالكدية »[2]

1 ـ 2 سيرتا: يقال عنها مدينة الهواء والهوى عروس الشرق الجزائري هي « سيرتا CIRTA أنشأة منذ عهد الكلدانين بنحو ألفي عام وذكر، أرنيست مارسي MERCIER ERNEST مؤرخ قسنطينة بشأن أقدميتها التاريخية ، يرجع تاريخ نشأة سيرتا إلى العهد الذي غادر فيه الإنسان سكنى الكهوف والمغارات وصار يألف حياة الاجتماع والانتظام»[3] فقد كان لها ماضي عتيق يمتد إلى العصور الفينيقية والمماليك النوميدية « ذكر محمد الصغير غانم أنه لازال اسم سيرتا قسنطينة الحالية غير معروف

---

[1] الأخضر بن السايح : سطوة المكان وشعرية القص(في رواية ذاكرة الجسد) دراسة في تقنيات السرد، ص 120 .

[2] الصالح لعريبي: البيئة الحضرية داخل الأنسجة العمرانية العتيقة والتنمية المستدامة (حالة قسنطينة) رسالة ماجستير ، جامعة المسيلة ، 2009/2008 م ، ص 145 .

[3] كمال غربي: المساجد والزوايا في مدينة قسنطينة الأثرية ، ص 23.

الأصل وأنه تحريف للاسم الحقيقي الذي هو(كرتن ك. ر. ت. ن) ومعناه المدينة أو القلعة المحصنة»[1] و هنا إشارة إلى الاختلافات في أصل التسمية « أما شأن ظهور هذا الاسم فهو الاسم القديم لقسنطينة وقد ظهر أول مرة في التاريخ عند أواخر القرن الثالث قبل الميلاد أثناء الحرب البونية الثانية (218 ـ 202 ق م) وكانت سيرتا وقتئذ عاصمة سفاقس (SEPHAX) دولة شعب الماسايسول (MASSAESYLE) »[2]

أما فيما يخص الرواية فقد أتت سيرتا في رواية " ذاكرة الجسد " تمثل تاريخ الماضي البعيد، أيام مجد قسنطينة « **كنت كلّ مرّة أقع على استنتاجات متناقضة . مرّة يبدو لي حبّك قصّة أسطوريّة أكبر منك ومني ، شيئًا كان مُقدّراً مُسبقاً منذ قرون ، منذ ... كانت قسنطينة مدينة تدعى (سيرتا). ومرّة أتساءل، ماذا لو كُنت رجلاً استوقفتك ذاكرته وأغراك جنونه بقصّة ما ؟** » [3] و كأن الشخصية هنا تحاول أن تتشبث بكل ما له علاقة بالماضي لتربط حاضره به « **كانت تشبهك تحمل اسمين مثلك، وعدّة تواريخ للميلاد. خارجة لتوّها من التاريخ، باسمين: واحد للتداول... و آخر للتذكار. كان اسمها يوماً (سيرتا) قاهرة كانت... كمدينة أنثى وكانوا رجالاً ... في غرور العسكر !**

---

[1] كمال غربي: المساجد والزوايا في مدينة قسنطينة الأثرية ، ص 24.

[2] المرجع نفسه: ص 35 .

[3] ذاكرة الجسد: ص 186 .

من هنا مرّ صيفاكس ... ماسّينيسا ... ويوغرطة ... وقبلهم آخرون »[1] هذا هو تمجيد قسنطينة عبر سيرتا، وكل من كانوا أبطالاً لهذا التمجيد الذين تركوا بصمتهم تتوارث عبر التاريخ.

و إذا عدنا للاستدلال بشأن أصل مدينة سيرتا و الإحاطة بها نجد أن هناك تضاربا حاداً بين الآراء والروايات، فهناك « القائلة باحتمال إطلاق اسم سيرتا على مدينة الكاف بالبلاد التونسية، وإن لم يوجد الآن دليل موثوق به يؤيد أو يفند هذا الاحتمال أو يدل على وحدة الاسم بين المدينتين ، ومنهم من يقول أن مدينة قسنطينة القديمة هي بلدة تيديس الأثرية، الواقعة على بعد 28 كلم غربي قسنطينة على الضفة اليمنى من مضايق الخندق على واد الرمال، وتحيط بها الجبال السخرية من جهاتها الثلاث ، بحيث لا يوصل إليها إلا من الناحية الشرقية ، وهي واقعة في بسيط من الأرض غنية بالآثار الرومانية و الفينيقية.

وجاء في دليل عن قسنطينة و أقدميتها التاريخية وموقعها الجغرافي، ملخصة: اسمها القديم سيرتا أطلق عليها هذا الاسم منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد أثناء الحرب الفينيقية الثانية 203 ق م ، وكانت آنذاك قاعدة ملك سفاكس أمير المسيسيلين، المتوفى أسيراً بروما، ثم صارت عاصمة نوميديا الشرقية بلاد المسيليين، وأميرهم

---

[1] ذاكرة الجسد: ص 290.

ماسينيسة، وكان واد الرمل يفصل بين المملكتين، فعلى عدوته الغربية توجد مملكة صفاقس وعلى عدوته الشرقية توجد مملكة ماسينيسة . وأشهر حواضر سيرتا في عهد الرومان: لمييس (تارولت) و هيبون(عنابة) وتيفيسة (تبسة)»[1]

1 ـ 3 صالح باي: الاسم الذي بقي ضارباً في تاريخ قسنطينة اسم ترك نقشه على الصخر العتيق « هو صالح بن مصطفى ازميريلي، تركي قديم في قسنطينة ، كان رجلا عاقلا سيرته مليحة وسياسته مستحسنة حميدة، يسمع كلام الشاكين وينصر المظلومين، ويحب دائما عمل الخير ويرتضيه ويسعى في صلاح العباد ويعتني بأمورهم ومن جملة مسيرته الحميدة سياسته المرضية أنه بنا قنطرة بطرف قسنطينة فوق الهواء أسسها وأتقن بنيانها فكان فيها منفعة للعباد وحصن البلاد ، وأسس المساجد للديانة وأجرى الصدقات على الفقراء وبذلك كانت أحواله في غاية الاستقامة»[2]

وبهذا نستطيع أن نقول أن صالح باي في الرواية لم يكن مجرد اسم عابر فيها «إذ تلعب هذه الشخصية دورا كبيراً في العمل الإبداعي الروائي [...] بالتفاعل مع الحدث

---

[1] ينظر محمد المهدي بن علي شغيب: أم الحواضر في الماضي والحاضر ، ص 15 ـ 16.

[2] المرجع نفسه: ص 38.

وإضفاء الحركية و الحياة في عالم النص قصد تحويل هذا العالم من نسيج متخيل إلى حقيقة واقعة »[1]

فشخصية صالح باي في الرواية كانت تلوح بالحزن على الرغم من أنها تُردد في الأغاني والأغنية غالباً ما تكون مصدراً للفرح والبهجة ، إذ نجدها في رواية " ذاكرة الجسد" وعلى لسان خالد بن طوبال « **في انتظار ذلك ... هذا العرس عرسهم. فليأكلوا وليطربوا. وليرشقوا الأوراق النقديّة. وليستمعوا للفرقاني يردد كما في كلّ عرس قسنطينيّ أغنية (صالح باي) . تلك التي مازالت منذ قرنين تُغنّى للعبرة ، لتذكّر أهل المدينة بفجيعة (صالح باي) وخدعة الحكم والجاه الذي لا يدوم لأحد ...** »[2] فهو يربط هنا بين خديعة صالح باي وزواج حياة، الذي كان بالنسبة إليه مجرد صفقة، هذه الخديعة التي اختلفت الروايات حول سببها وظروفها ، فمنهم من قال « إن حاشية صالح باي هي التي أشارت عليه بالتمرد على حكومة الجزائر وإعلان استقلاله عنها، ولما حاقت به المحنة تخلوا عنه وخذلوه فكانوا السبب في هلاكه وزوال ملكه، وفي رواية أخرى للعنتري[*] يقول: « أمر الباشا حسن الخزناجي بعزل

---

[1] سعدية بن يحي: دلالة المكان في رواية عابر سرير لأحلام مستغانمي ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر،2008/2007 م ، ص37 .

[2] ذاكرة الجسد: ص 355.

[*] العنتري: (محمد الصالح بن العنتري) مؤرخ كان يعمل خوجة لدى الحاج أحمد باي وقد أمر بقتله عام 1837 م لديه كتاب « سنين القحط والمسغبة ببلد قسنطينة » و آخر بعنوان« فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة ».

صالح باي وانتقاله بأهله وأولاده وأمواله إلى الجزائر [...] وعندما بلغه خبر العزل تغيرت له الأحوال وكره العزل والانتقال فاستغاث وطلب الأنصار من ناس البلد فانقادوا إليه [...] فلما تبين لهم الخبر الصحيح وتحققوا أن الأمر بعزله جاء من عند الباشا بالجزائر تراهم سلوا أيديهم منه فبقي وحده مهموما »[1] وعلى هذا صالح باي لم يكن اسما يغنونه فقط، بل كان لباس حزنهم، الحزن المتوارث عبر الأجيال على الرغم من مسافة الزمن البعيد « **وأدري ... كان (صالح) ثوب حدادك الأوّل حتى قبل أن تولدي كان آخر بايات قسنطينة ... وكنت أنا وصيّته الأخيرة: " يا حمودة ... آه يا ولدي تها لله لي في الدار ... آه ... آه ..." أيّ دار يا صالح ... أيّ دار توصيني بيها ؟** » [2] وهكذا نستطيع أن نقول أن دار صالح باي كانت قسنطينة، والتي يصورها خالد بن طوبال في شخصية حياة ويبحث عنها فيها .

إن هذه الدلالات كافية للكشف عن مدى تأثير صالح باي كشخصية تاريخية في الرواية القسنطينية، فلا يمكن المرور بهذه المدينة دون أن يوقفنا هذا الاسم ، ففي رواية "الزلزال" يحاول الروائي " الطاهر وطار" أن يوضح لنا أن هذا الباي لم يمت بل ما زال يجوب كل أرجاء المدينة يعيش في كل بيت من بيوتها ، يتقاسم الشوارع مع سكانها يكبر فيهم يوما بعد يوم ، بل هو الإنسان الذي لا يعرف الموت مخلد في ماضيها و حاضرها

---

[1] ينظر محمد المهدي بن علي شغيب: أم الحواضر بين الماضي والحاضر ، ص 378 ـ 379.

[2] ذاكرة الجسد: ص 378 .

« **فإن أمثال هذه الأزقة والكهوف والسبابيط، لا يمكن بحال أن تتغير. أن تعرف تغيرا كبيرا، لا يسمح بالعثور فيها على أثر تاجر من تجارها. الدليل على ذلك بقاء بالباي كناب في فم عجوز يشهد أن الفم كان مليئا بالأسنان** » [1] وهذا الترسيخ الذي عرفه صالح باي كان نتاج مآثره الذي يُعتز بها « منها إنشاؤه لقنطرة قسنطينة الرابطة بين المدينة والفحص الشرقي ، وبناؤه لمرسى سكيكدة التي تضاعفت بواسطتها التجارة، وكذا إنشاؤه مدرسة الجامع الأخضر والمدرسة الكتانية ، كانت هذه البعض من مآثره وأعماله في الإنشاء والتعمير وقد أجمع مؤرخو البلاد على القول بأن صالح باي لو قدر له البقاء في الحكم مدة أطول، لكان تاريخ البلاد يأخذ وجها آخر» [2]

كما أتت رواية " الزلزال" على بعض هذه المآثر يقول بوالارواح « **مدرسة إلى جانب التكميلية، مدرسة صالح باي. ثم المسجد آه. لايزال المسجد مسجدا . تلكم آثارنا تدل علينا** »[3] هكذا استوقف صالح باي الشيخ عبد المجيد بوالارواح، عبر كل ما شيده وما تم تشييده تخليدا لاسمه « **لو لم تكن المسالة على غاية من الأهمية لما تحركت أبدا من العاصمة، أو على الأقل لاسترحت في نزل إلى غاية نهار الغد . لكن لا على المرء أن لا يؤجل عمل يومه إلى غده ليس من السهل سبق حكومة بالباي يقول**

---

[1] الزلزال: ص58.

[2] ينظر محمد المهدي بن علي شغيب: أم الحواضر بين الماضي والحاضر، ص285 ـ 284.

[3] الزلزال: ص163.

أنني متأخر جدا » [1] فالشيخ بوالارواح كان يمثل الرجل الإقطاعي بامتياز الذي يحبذ حياة الطبقية ويتفاخر بها؛ من خلال أن هناك أناساً خلقوا ليكونوا أشرافاً وأسياداً وأناساً يعيشون تحت رحمة هؤلاء الأسياد « يتجول بوالارواح في المدينة باحثا عن أقربائه ليوزع عليهم ممتلكاته هروبا من قرار الحكومة ، التأميم الذي رافق ثورة الإصلاح الزراعي فلا يجد أحد يستجيب له من أقربائه، فكلهم قد تغيروا وتبدلوا » [2] فالرواية تنقل لنا وضع هؤلاء من الناس إبان الثورة الزراعية ؛ تلك التي سعت من خلالها الحكومة أن تنهض بسياسة جديدة تحفظ لكل ذي حق حقه « فالثورة عبارة عن شيء متكامل، والأرض لمن يفلحها [...] ولابد من القضاء على وضعية الخماس لأن هناك عاملا له حقوق وعليه واجبات وإن القوانين الاجتماعية التي هم الآن بصددها ستحفظ كل حقوق العمال سواء كانوا في المعمل أو في المزرعة » [3] فمن هذا الباب دخل الشيخ بوالارواح في وصف هذه الحكومة بحكومة بالباي الذي سبق لنا وان شرحنا تفاصيلها، والتي عاشت قسنطينة في ظلها أوج ازدهارها .

---

[1] الزلزال: ص 125.

[2] عبد الله الخطيب: النسيج اللغوي في روايات الطاهر وطار ، دار فضاءات عمان ، الأردن ، ط 1 ، 2008 م، ص 77 .

[3] وزارة الإعلام والثقافة: خطب الرئيس بومدين: نشر وزراعة الإعلام والثقافة ، الجزائر ، 1972 م ، ج 4، ص 135.

1 ـ 4 ابن باديس: تحاول الرواية في كل مرة أن تغوص في أعماق المدينة لتنهض بكل من مروا بها وكانوا سببا في نسج تاريخها، ولعل ابن باديس هو أحد أعمدة المدينة التي ظل اسمها يحاكي اسمه وذلك لما له من روح دينية ووعي ثقافي وفكر سياسي تحرري، وهو يعود في أصله « إلى أسرة عريقة معروفة بالعلم والجاه والثراء، ما جعله جذوة مشتعلة من النشاط والحيوية والكفاح جند كل سعات عمره لحركة الإصلاح، فكان يعلم الصغار في الصباح، ويعلم الكبار في المساء، وفي الوقت نسه يتابع نشاطه الصحفي وإدارة الجمعية. أما وقت فراغه فهو للتجوال في البلدان لتجميع الكلمة وتوحيد الجهود، وافتتاح المدارس والأندية وبث الحركة الإصلاحية عبر المدن والقرى»[1] وبهذا يكون ابن باديس رمزا للنضال ومنبرا للعلم في مدينة قسنطينة، يقول خالد في رواية " ذاكرة الجسد ": « **في ذلك الزمن كان لابن باديس المقهى الذي يتوقّف عنده وهو في طريقه إلى المدرسة كان اسمه (مقهى بن يامينة)** »[2] بحيث يقف خالد باحثا عن ذلك الزمن في حاضره محاولا استعادته عبر سجل عظمائه هؤلاء الذين لم يعد لهم بديل في هذا الزمن، خسرتهم المدينة وإلى الأبد، يقول الشيخ بوالارواح: « **ما الذي أتى بهم**

---

[1] أحمد سيد محمد: المختار في الأدب والنصوص و النقد والتراجم الأدبية، المعهد التربوي الوطني، الجزائر، د ط، د ت، ص 388.

[2] ذاكرة الجسد: ص312.

إلى هنا؟ أهي مدينة صناعية؟ لا. أهي مدينة تجارية؟ لا. أهي مدينة ثقافية؟ لا بعد وفاة ابن باديس، وانفراطنا، لم يبقى في قسنطينة علم أو ثقافة »[1]

1 ـ 5 المساجد والأولياء الصالحون: إن المساجد في قسنطينة لها طابعها الخاص، فهي أحد أهم التحف التي تؤصل لتاريخ المدينة الذي يمتزج بين العروبة والإسلام وتعبر أيضا على الديانة السائدة فيها ـ الإسلام ـ ففي رواية " ذاكرة الجسد " نجد الروائية " أحلام مستغانمي" لم تعن بذكر مسجد بعينه، وإنما اكتفت بالتعميم عن طريق كلمة مساجد أو ما يشير إليها إذ نجدها تقول على لسان حسان: « **والله يا خالد ... لو رأيتهم يوم الجمعة يتّجهون إلى المساجد بالآلاف حتى تضيق بهم جدرانها... و تفيض بهم الشوارع ... لوقفت معهم تصلّي دون أن تتساءل لماذا ! »**[2] هذا دليل على تأثير المساجد في هذه المدينة على نفسية الإنسان القسنطيني، فهو المكان الذي يجتمع الناس فيه خمس مرات في اليوم للاعتصام بحبل الله، يصطفون جنبا إلى جنب متساوون فيما بينهم على الرغم من الاختلافات التي صنعتها الحياة ، ليُعزز مظهر الأخوة والطهارة والعفة.

و في المقابل نجد رواية " الزلزال " تستعين هي الأخرى بالمساجد في السرد، إلا أنها تخصص بذكر أسماء بعض المساجد « **حان الوقت. قال و قرر أن يسرع خطاه**

---

[1] الزلزال: ص57.

[2] ذاكرة الجسد: ص 306 .

ليقطع المسافة القصيرة، التي تفصله عن الجامع الكبير، بيد أن صوتا متميزا، جعله يتوقف، ويركز كل انتباهه »[1]

ونلحظ في هذا الذكر للأسماء، تأكيدا على كثرة المساجد في هذه المدينة وتوظيفه للجامع الكبير على وجه الخصوص، لتضخيم لفكرة المساجد في قسنطينة لدى القارئ « والجامع الكبير هو الجامع المعروف اليوم بهذا الاسم الموجود ببطحاء السويقة بشارع بن مهيدي، على يمين المتوجه نحو القنطرة القديمة الواصلة بين المدينة ومحطة السكة الحديدية »[2] ولم تقف عند هذا المسجد فقط بل تطرقت إلى عدة مساجد أخرى « **الجامع الأخضر و جامع ميمون وزاوية المصلى على اليمين وقربه جامع الباي وجامع سيدي قموش في آخر الدرب المقابل** »[3] ولكي نشرح أكثر حول هذه المساجد نقول: « أن جامع سيدي لخضر يقع وسط المدينة بالقرب من رحبة الصوف وهو يطل على الشارع من ناحية الغرب ، أطلق على جامع سيدي لخضر هذا الاسم نسبة إلى الشيخ سيدي لخضر الذي كان أول عالم في المسجد »[4] أما فيما يخص جامع سيدي ميمون، « فيقع بالنجارين عند ملتقى نهج (فيو قاردران) تقام فيه الصلوات الخمس

---

[1] الزلزال: ص 8.

[2] محمد المهدي بن علي شغيب: أم الحواضر بين الماضي والحاضر ، ص 232 .

[3] الزلزال: ص 15.

[4] كمال غربي : المساجد والزوايا في مدينة قسنطينة الأثرية ، ص 110 .

والجمعة والدروس»[1] كما أشارت الرواية إلى جامع الباي نسبة إلى حسين باي، والذي « يقع شرق قصر أحمد باي إلى الغرب من شارع ديدوش مراد الذي يعرف حاليا بشارع فرنسا »[2] أما جامع سيدي قموش « الذي يرجع تاريخ نشأته إلى القرن التاسع هجري حسب ما هو مكتوب على شاهد قبر حاجب الاسم المدفون بداخل هذا المسجد وهو الآن ملك خاص لآل باديس ، وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس يلقي فيه الدروس [...] وتقام فيه اليوم الصلوات الخمس وتعليم القرآن للصغار » [3]

ففي هذا التعدد للمساجد تبرز ملامح سكان المدينة، بالإضافة إلى أنها أمكنة يُستأنس بوجودها و تبعثُ الطمأنينة، باعتبار بيوتاً مسخرة للغريب قبل القريب.

الأولياء الصالحون: ثقافة لها تاريخ في مدينة قسنطينة ، فهم أناس لهم صيتهم في هذه المدينة، أين يتحاشون المساس بهم و الحفاظ على حرماتهم ، خوفا من العواقب التي تلحق جزاء العبث بهم، هذا هو الاعتقاد السائد ، حيث كان الأولياء الصالحين قبلة ومزارا للناس يشكون لهم مشاق الدنيا وهمومها، ويسألونهم التفريج عنهم، « عن وصية الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، أنه قال: يكفيك من الدنيا خدمة ولي ، أو صحبة عالم

---

[1] كمال غربي : المساجد والزوايا في مدينة قسنطينة الأثرية ، ص 139 .

[2] المرجع نفسه: ص 122 .

[3] المرجع نفسه: ص 130 .

فالأولياء أوتاد الدنيا، بهم تثبت وبهم تستقر»[1] وفي هذا دليل على أنهم أناس لهم مكانتهم عند الله « فعن علي بن أبي طالب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأبدال فقال: هم ستون رجلا قلت يا رسول الله حلّهم لي قال : ليسوا بالمتنطعين ولا بالمبتدعين ولا بالمعجبين ، لم ينالوا ما نالوا بكثرة الصلاة ولا صدقة ولكن بسخاء الأنفس وسلامة القلوب والنصيحة لائمتهم إنهم ياعليُ في أُمتي أقل من الكبريت الأحمر»[2] فهم عاشوا في الدنيا ببساطتهم، صالحين لا يبثون فيها إلا الصلح .

تقول رواية " الزلزال": « **بين قدمي الجسر. تحت أقواسه الضخمة ، وبعد محل تنظيف العاهرات يختبئ سيدي راشد: هكذا انزوي. لابد أنه كان في يوم من الأيام ، يحتل قمة . ثم انحدر شيئا فشيئا حتى استقرت به الأرض . لا يجوز أن يرضى ولي من أولياء الله بالإقامة في العالم السفلي** » [3] وسيدي راشد أحد أولياء المدينة ، يقع أسفل قنطرة سيدي راشد ، وقد تعددت الروايات حول أصل هذا الضريح

---

[1] يوسف بن عبد الهادي الحنبلي (الإمام يوسف بن حسن بن عبد الوهاب المقدسي الدمشقي الحنبلي ت 909 هـ): صب الخمول على من وصل أذاه إلى الصالحين من أوليا الله، دار النوادر، الكويت، ط1، 2007 م، ص 27.

[2] الحافظ أبي محمد الخلال (439 هـ) : كرامات الأولياء ، تحق الشيخ أسامة الشريف ، دار المشاريع ، بيروت ، ط1 ، 2007 م، ص27.

[3] الزلزال: ص 106.

« حيث قيل أن الضريح لامرأة يهودية وحمارها ، وهناك من قال لسجين جزائري من سجن السويقة ، كان من أشهر المساجين نشاطا في عملية بناء جسر سيدي راشد » [1]

كما جاءت رواية " الزلزال " على ذكر بعض العادات التي بقيت حبيسة الأجداد « **الطريق معبدة، عبدها السلف الصالح، و كل إثارة لتشكك فيها، دفع للمارقين والملحدين و أصحاب البدع، إلى قطعها نهائيا. لأصلّ ركعتين في ضريح سيدي راشد [...] أجئت للزيارة ؟ نعم . تفضل سيدي راشد أمامك [...] المسجد جد صغير حوالي عشرة أمتار مربعة ـ المنبر المتواضع على اليسار، الضريح على اليمين، الزرابي الاصطناعية تغطي السقف والجدران والأرضية [...] بعض شمعات قرب الضريح المغطى بخرقة خضراء بالية [...] بينما واجه هو المنبر و كبر، يا سيدي راشد يا ولي الله قضيت تسع ساعات في الطريق قادما من العاصمة في هذا الحر، لأمر يهمني [...] وعدتك كبيرة يا سيدي راشد** » [2] كانت هذه عادات الأضرحة، طقوس لم يتجاوزها الزمن يتضرعون بها لله عن طريق الأولياء الصالحين، وعلى الرغم من أن الشيخ عبد المجيد بوالارواح رجل مثقف إلا أنه كان يرتاد هذا النوع من الأمكنة، ربما ليوضح لنا مدى ترسيخ فكرة الأولياء الصالحين عند أهالي المدينة، لدى المثقف وغير المثقف « إنه

---

[1] سامية خليل: أغنية زمان وحكاية مكان سيدي راشد في قسنطينة عبر الأزمان، مجلة مقام، الجزائر، ع 1 أفريل ،2015 م، ص 21 .

[2] ينظر الزلزال: ص 107 ـ 108 ـ 109 .

مجتمع معتقد بأهمية الأولياء الصالحين في حياتهم الدينية والاجتماعية إذ يلقى الولي الصالح عندهم التبجيل والاحترام والتقديس، فهي مدينة تتبرك بآيات الولي الصالح سيدي راشد لذلك سمت الجسر باسمه فأولياء الله يحكمون هذه المدينة فنجدها تستسلم لهم وتمدهم بالطاعة الكاملة » [1] وهذا ما وضحته رواية " ذاكرة الجسد " وذلك بلجوء خالد إلى الأولياء الصالحين بعدما انغلقت كل الأبواب في وجهه، عاد إلى أصل أجداده لينطلق منه في الاستنجاد « **وإذا بي أقضي سهرتي في السلام عليهم واحدا واحدا ... سلاما يا سيدي راشد ... سلاما يا سيدي مبروك ... يا سيدي محمد الغراب ... يا سيدي سليمان ... يا سيدي بوعنابة ... يا سيدي عبد المؤمن ... يا سيدي مسيد ... يا سيدي بومعزة ... يا سيدي جليس ... سلاما يا من تحكموا شوارع هذه المدينة ... أزقتها وذاكرتها . قفوا معي يا أولياء الله ... متعب أنا الليلة ... فلا تتخلوا عني..**»[2]

كما أن للبعض من هؤلاء الأولياء قصص أسطورية، تم توظيفها في الرواية « بغية شحن النص وتحميله دلالات إيحائية كثيفة [...] إذ يمكن للاسم أن يعطي العديد من الدلالات أولها الدلالة التاريخية عل اعتبار الأسطورة ، و الأسطورة اصطلاح أدبي

---

[1] مريم بغيبغ: قسنطينة في الرواية الجزائرية المعاصرة ، رسالة ماجستير ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2010/2009 م، ص 110 .

[2] ينظر ذاكرة الجسد: ص 360 ـ 361 .

أطلق أصلا على كل حكاية خيالية »[1] إذ استعان خالد بأسطورة كثيرا ما تناقلتها أفواه القسنطينيين، تقول هذه الأسطورة « **إنّ هذا الجسر كان أحد أسباب هلاك (صالح باي) ، ونهايته المفجعة ... فقد قتل فوقه(سيدي محمد) أحد الأولياء الذين كانوا يتمتّعون بشعبيّة كبيرة . وعندما سقط رأس الرجل الولي على الأرض ، تحوّل جسمه إلى غراب ، وطار متوجّهاً نحو دار صالح باي الريفيّة** » [2] ويقال أنه كان إماما ورجلا تقيا آنذاك « من حفظه القرآن وهو من منطقة سدراتة الكائنة بولاية سوق أهراس و اشتهر بسيدي محمد الغراب ، عمل إماما ببيت الصلاة التي بناها صالح باي وكان الناس يتبركون به ويترددون إليه ويطلبون النصح والإرشاد منه [...] بحيث تقول الأسطورة الخيالية أنه عندما قتل تحولت جثته إلى غراب أسود ضخم [...] بني له ضريح بقبة بيضاء بناحية سيدي محمد غراب حاليا وهي قرية تبعد بحوالي 7 كلم من وسط المدينة قسنطينة [...] يزار من طرف العائلات القسنطينية حتى الوقت الحاضر، وتعرف هذه الزيارة بالنشرة » [3] إذ تعبر هذه العادة على تمسك سكان مدينة قسنطينة بكل ما هو موروث حتى و إن كان فيه جانب من التشكيك الذي يتعارض مع الواقع.

---

[1] سعدية بن يحي: دلالة المكان في رواية عابر سرير لأحلام مستغانمي ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر ، 2008/2007 م، ص 26 .

[2] ذاكرة الجسد: ص 296 .

[3] إيمان زيتوني : صالح باي الأسطورة ، مجلة مقام ، الجزائر ، ع 1 أفريل ، 2015 م، ص 15.

1 ـ 6 البيت العائلي: مكان لا يعرفه النسيان، يبقى دائما محفورا في الذاكرة كيف لا وهو « البيت القديم، بيت الطفولة ، هو مكان الألفة ، ومركز تكيف الخيال وعندما نبتعد عنه نظل دائما نستعيد ذكراه ، ونسقط على الكثير من مظاهر الحياة المادية ذلك الإحساس بالحماية والأمن اللذين كان يوفرهما لنا ذلك البيت » [1]

هكذا صورت لنا " أحلام مستغانمي " البيت العائلي على أنه يبني فيه الفرد كل كيانه ، وعلى أنه الجزء المساهم في حياتنا الذي لا يمكن التخلي عنه بسهولة ، يقول خالد : « **أم أنّ السبب هو صدمة لقائي العاطفيّ الآخر مع ذلك البيت ، الذي ولدت فيه وتربيت ، والذي على جدرانه وأدراجه ونوافذه وغرفه وممراته، كثيرا من ذاكرتي ، من أفراح ومآتم وأعياد .... و أيام عاديّة أخرى** » [2] فالبيت العائلي هو الجذع الذي يلتف حوله كل أفراد الأسرة أين يتقاسمون أفراحهم و أحزانهم ، مهما انتقل الزمن وطال مصير الرجوع يكون إليه ، لأن ذكرياته أقوى من أن يتخلى عنها الإنسان هذا « ما أظهره الروائي في البيت العائلي ، المكان الذي تعود إليه الرواية بين الحين والآخر لا لتصوره كركام من الجدران و الأثاث ، و إنما كوسيلة أو نقطة انطلاق للحديث

---

[1] غاستون باشلار: جماليات المكان ، تر غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط2، 1984 م ، ص 9 .

[2] ذاكرة الجسد : ص 288 .

عن سيرة شخصية أو تاريخ عائلي أو تناول قضايا وطنية ، هذا البيت يقع بمدينة قسنطينة التي تشغل الحيز الأكبر في الرواية »[1]

إذن هذا البيت هو جزء من الكل، وهو نقطة انطلاق « لتبدأ الرواية من حيث يجب أن تنتهي ثم يعود بقارئه ليسلسل تطور الحوادث التي أدت إلى تلك النهاية والتي افتتح بها روايته ، والمؤلف في الواقع له الحق في استغلال الأحداث »[2] فكل ما كان ذلك البيت عامرا بالأحداث وما يبعث بالحركة يزيد هذا من مخيلة الكاتب و إبداعه ، بحيث أن كل ما في البيت، ما هو إلا امتداد للشخصية أو الإنسان الذي يمثل ذلك البيت .

2 ـ قسنطينة البعد الحضاري:

نظرا للمكانة التي تحتلها المدينة على غرار نظيراتها من المدن جعلها هذا تكتسي رونقا خاصا بها ، والمستمد من حضارة عريقة وموقع جغرافي استراتيجي وكذا طابع عمراني أخاذ، كل هذه الظروف وغيرها مكنتها بالتفرد والاستقلالية بذاتها ، ونحن بصدد دراسة البعد الحضاري لمدينة قسنطينة الذي يجمع بين أصالة القديم وكل ما هو جديد، سنحاول الوقوف عند بعض ما تميزت به المدينة من جسور وشوارع وكذا مقاهي.

---

[1] صالح مفقودة : قسنطينة والبعد الحضاري للمكان في رواية ذاكرة الجسد ، مجلة العلوم الإنسانية ، كلية الآداب واللغات ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، الجزائر، ع 13 ، 2000 م، ص 242 .

[2] الأخضر بن السايح : سطوة المكان وشعرية القص(في رواية ذاكرة الجسد) دراسة في تقنيات السرد ، ص 147 .

2 ـ 1 الجسور: هي المعلم الرئيس الذي تعرف به قسنطينة وأروع ما شيدت يد الإنسان في هذه المدينة، تلبية لحاجيات طبيعتها الوعرة، هذا ما أدى بسَاكنها إلى التفكير عما يمكن أن يسهل عليه عملية التنقل من مكان إلى آخر، دون أن يأخذ هذا منه جهداً كبيراً .

وحديثنا عن الجسور سينطلق من خلال الروايتين : " ذاكرة " الجسد و " الزلزال" ففي " ذاكرة الجسد " كانت ولادة الجسور على يد خالد في تلك اللوحة الزيتية ، تحت اسم حنين ، من هنا بدأت حكاية الجسر في هذه الرواية ، فهو لم يكن مجرد جسر « فالكاتبة لم تتناول الجسر كمكان جغرافي وظيفته الربط بين نقطة وأخرى ، بل تناولت دلالته الرمزية والتأثيرية والتعبيرية ، وبين كل دلالة ودلالة عمدت إلى إظهار جمالية خاصة به ، وبذلك فهي تتجاوز صورة الجسر الجامدة لتكشف لنا من خلالها إمكانية تعدد صورة بفعل دلالة المكان » [1] إذ يقول خالد بن طوبال في الرواية: « **انتظرت فقط طلوع الصباح لأشتري ما تبقّى في جيبي من أوراق نقديّة ما أحتاج إليه لرسم لوحتين أو ثلاث ، ووقفت كمجنون على عجل أرسم (قنطرة الحبال) في قسنطينة... أكان ذلك الجسر أحبّ شيء إليّ حقاً، لأقف بتلقائيّة لأرسمه وقفت وكأَّنني وقفت لأجتازه كالعادة؟**

[1] سعدية بن يحي: دلالة المكان في رواية عابر سرير لأحلام مستغانمي ، ص 51 .

أم تراه كان أسهل شيء للرسم فقط ؟ لا أدري...أدري أَنني رسمت مرَّات و مرَّات بعد ذلك، وكأَنني أرسمه كلّ مرة لأول مرة. وكأنه أحبّ شيء لديّ كلّ مرّة .

خمس وعشرون سنه، عمر اللوحة التي أسميتها دون كثير من التفكير (حنين) »[1]

فبهذه اللوحة كان خالد يتأهب لدخول عالم جديد وحياة فرضت نفسها عليه ، كمحاولة « للتعويض والتنفيس، يرسم جسرا بقسنطينة يسمي تلك اللوحة حنين، رسمها في التاريخ نفسه الذي سمى الفتاة أحلام بهذا الاسم ، بوصية من أبيها سي الطاهر، وبذلك فالفتاة توأم لتلك اللوحة ، إن اللوحة (حنين) دال يحيل إلى مدلول هو جسر في قسنطينة هو قنطرة لحبال ولكن هذا المدلول سرعان ما يتحول إلى دال يرتبط بقسنطينة » [2]

إذن فالبعد الأول لهذه اللوحة قسنطينة، ومن ثم أخذت تسبح إلى عدة أبعاد، بحيث لم تصبح مجرد لوحة بل هي شيء يتشبث به إلى كل ما هو جميل، ففي البداية كانت قسنطينة ، وهاهي حياة تبعثُ في هذه اللوحة كبعد آخر « ونذكر على سبيل الإشارة إلى أن هذا الجسر من الآثار العجيبة بمدينة قسنطينة وقد وصفه أحد المؤرخين بقوله : وللمدينة بابان ، باب ميلة في الغرب وباب القنطرة في الشرق وهذه القنطرة من أعجب البناءات لأن علوها يشق على مئة ذراع وهي بناء الروم » [3]

---

[1] ذاكرة الجسد: ص 63 .

[2] صالح مفقودة: أبحاث في الرواية العربية ، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2008 م ، ص 116.

[3] صالح مفقودة: قسنطينة والبعد الحضري للمكان في رواية ذاكرة الجسد ، ص 245 .

إن هذا الجسر تجاوز المعنى السطحي في الرواية إذ نرى « خالد بن طوبال توحد مع هذا الجسر مكونا معه كائنا واحدا في فرحه وحزنه أيضا، وبالتالي يعكس العلاقة الصهرية الصوفية التي يتخذ فيها المكان والصفحات القدسية ويعتلي ليكون حجة ومقصدا روحيا ويشكل رمزا لتحديد هوية المكان »[1] وقد جاء في الرواية على لسان خالد « **هنا القنطرة .... أقرب جسر لبيتي ولذاكرتي. أعبرها تلقائّياً وكأنّني ارسمها، مشياً على الأقدام ، بين الدوار المبهم والتذكار وكأنّني أعبر حياتي أجتاز العمر من طرف إلى آخر. كلّ شيء كان يبدو مسرعاً على هذا الجسر، السَّيارات العابرون وحتَّى الطيور، وكأن شيئاً ما كان ينتظرهم على الطرف الآخر**»[2]

وفي المقابل كانت رواية " الزلزال " هي الأخرى أتت في نسجها على الجسر و الجسور، لكن هذه المرة بطريقة صياغية مكثفة، ربما لتصور لنا مدى أهمية الجسر في هذه المدينة ، فهي لم تكتف بذكر جسر معين أو جسرين بل انتقلت بين الجسور الواحد تلو الآخر « حيث ترد لفظة الجسر في الرواية خمسا وستين مرة وبدلالات متنوعة على المكان بمعناه الواقعي والمتخيل »[3] ففي الصورة الحقيقية للجسر، هو وسيلة انتقال من محطة إلى أخرى ، الشيء نفسه في رواية " الزلزال " فقد مثّل الجسر نقطة فاصلة

---

[1] الأخضر بن السايح: سطوة المكان وشعرية القص(في رواية ذاكرة الجسد) دراسة في تقنيات السرد، ص 105 .

[2] ذاكرة الجسد: ص 292 .

[3] محمد هايل: سيميائية اللغة والتكنيك الروائي في رواية الزلزال (لفظة الجسر نموذجا) مجلة الأثر، سوريا ، 24 فيفري، 2011 م ، ص 147 .

بين جزء وآخر، حيث لم يخرج عن وظيفته الأساسية التي وجد من أجلها « فقد توزعت الرواية على سبع فصول وكل فصل يحمل اسم جسر من جسور قسنطينة ، فتبدأ بجسر باب القنطرة وتنتهي بجسر الهوا وعلى هذه الصور تنمو أحداث الرواية وهي تقلب جغرافية الأمكنة من خلال انتقال بوالارواح من مكان إلى آخر »[1] وهكذا كانت الفاتحة مع جسر " باب القنطرة " « **علق الشيخ بوالارواح وهو يفتح باب السيارة التي فرغ من مهمة إيقافها في المكان الضيق الذي تمكن من العثور عليه بعد بحث طول ، في الساحة قبالة جسر القنطرة** » [2] من هنا تنطلق رحلة الشيخ بوالارواح في مدينة قسنطينة الواصفة لحالة الذعر التي غمرته جراء الوضع المتردي الذي وصلت إليه هذه المدينة، وهذا الجسر هو أقدم الجسور يعود في أصل بنائه إلى الأتراك، كما أنه مريح نوعاً ما وأقل هيبة « **هذا الجسر أفضل جسور قسنطينة السبعة. عريض و قصير، سرعان ما ينسى الإنسان الهوة التي بينه وبين الوادي** »[3]

أما جسر " سيدي مسيد " فكان محطته الثانية، وهذا الجسر يعود في تاريخ بنائه إلى الفرنسيين ، ويعرف كذلك (بقنطرة سبيطار) بحكم أنه أقرب جسر إلى المستشفى الجامعي ، فقد وجد الشيخ بوالارواح الحي في أسوء حالاته إذ يقول: « **حي سيدي مسيد**

---

[1] عبد الرزاق بن دحمان: تاريخ المكان وتخيل المرجع في رواية الزلزال (للطاهر وطار) مجلة العلوم الإنسانية ، كلية الآداب واللغات ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، الجزائر ، ع 28/27 نوفمبر ، 2012 م ، ص 442 .

[2] الزلزال: ص5.

[3] الزلزال: ص6.

يبدو كحي الجرابيع في أولاد حارتنا للكافر نجيب محفوظ ، الذي جبن المصريون عن قتله بسبب ما فيها من كفر وإلحاد وسخرية بالأنبياء والمرسلين والملائكة » [1] هذا ما جعله دائم التضرع لسيدي مسيد « **يا سيدي مسيد لها يا سيدي مسيد لها حركها بهم وبمنكوبهم** »[2]

جسر " سيدي راشد " هو الوجه الثالثة في الرواية والذي يعد أعلى جسر حجري في العالم يحمله سبعة وعشرون قوسا ، وينسب اسمه إلى الولي الصالح سيدي راشد الذي يقع قبره تحت الجسر كما سبق لنا الذكر، وقد مثل هذا الجسر في الرواية بداية خيبات الأمل و تثاقلها جراء ذلك التغير الذي مس جميع الناس حتى أقارب الشيخ بوالارواح ، إذ نجده يتمسك بهذا الجسر محاولا التخفيف من هول فاجعته يقول: « **في الأقصى يبدو جزء من جسر سيدي راشد ، النائم فوق أقواس مضاعفة من الصخور والاسمنت المسلح يتحدى العربات الضخمة والشاحنات الكبيرة . مهما كان هول الزلزال ومهما كانت قوته وعظمته، فإن هذا الجسر لن ينكسر** »[3]

" مجار الغنم " هو الجسر الرابع في الرواية، وأحد جسور قسنطينة والذي يربط بين حي رومانيا وحي باردوا ، ففي هذا الفصل كانت مأساة بوالارواح أعظم ، وكيف راح

---

[1] الزلزال: ص34.

[2] الزلزال: ص42.

[3] الزلزال: ص104.

ضحية العلم والمال، وفقد أعز ما يمكن أن يمتلكه المرء خصوصا بعد تلك الجمل من التحولات التي آل إليها أقرباؤه .

" جسر المصعد " أو جسر ملاح سليمان ، كما يعرف باسم قنطرة الحديد ، لأنه عبارة عن ممر حديدي مخصص للراجلين فقط « **تمتم الشيخ بوالارواح وهو يشعر باليأس يطغى على قلبه، عندما اتكأ على السور قرب المصعد ، وتأمل الجسر والأخدود الذي تحته** » [1] فمن هذا الجسر ظهرت انكسارات عائلة بوالارواح التي بدأت على يد الأب لتنتهي على يد الابن، باقية كهاجس تسكنه ولا يجد لها سبيل .

" جسر الشياطين " هو جسر صغير يقع في أسفل أخدود الوادي ، بحيث عندما ترتفع نسبة مياه الوادي تغطي هذا الجسر ، الذي كان سادس جسور رواية " الزلزال " إذ نجد الشيخ عبد المجيد بوالارواح يقول: « **أين أنا؟ أين أنا؟ فأجابه الأطفال بصوت واحد: في جسر الشياطين في جسر الشياطين** »[2] هذا الجسر الذي يمثل العد العكسي لبوالارواح والذي يلوح بنهايته ، النهاية التي كان يتوقعها لغيره فكانت مصيره .

"جسر الهوا " آخر جسور الرواية والذي كان يحمل نهاية الرجل الإقطاعي، الذي لم يجد منفذا لا بماله ولا بعلمه ، غلبته تفاهة الحياة « **عندما وجد نفسه على الجسر كانت الحرارة المنبعثة من جسمه مرتفعة، التفت نحو سيدي مسيد وتنفس من أعماقه**

---

[1] الزلزال: ص 141.

[2] الزلزال: ص172.

التفت نحو باب القنطرة وجذب نفسا كبيرا أيضا »[1] كل شيء أخذ بالتلاشي العلم، المال الأقارب ، فبعد ما كانت قسنطينة منفذه الوحيد ، أضحت مسرحا لانهياره.

هكذا يتبدى لنا الجسر على أنه « المكان الذي تجري فيه الحوادث وتتحرك فيه الشخصيات لأنه يتحول [...] إلى فضاء يحتوي على كل العناصر الروائية بما فيها من حوادث وشخصيات، وما بينهما من علاقات، ويمنحها المناخ الذي تُفعل فيه وتُعبر عن وجهة نظرها ويكون هو نفسه المساعد على تطوير بناء الرواية، و حامل لرؤية البطل والممثل لمنظور المؤلف »[2]

2 ـ 2 الشوارع: لقد شكلت رواية " الزلزال " فضاء رحبا لاستقبال مدينة قسنطينة « إذ يستحضر الروائي الهندسة المكانية لهذه المدينة ، ويجعل منها مسرحا جمالياً وفنيا لأحداث ومشاهد روايته ، فنرى رحله الشخصية ومغامراته عبر الأمكنة والشوارع » [3] فهذا الأخير يمثل مرآة عاكسة لوجه المدينة إذ « يتخذ منه إطارا ماديا يستحضر من خلاله كل المشكلات [...] باعتباره خشبة مسرح واسعة تعرض الشخصيات من خلال أهوائها ، وهواجسها ، نوازعها وعواطفها وآلامها وآمالها » [4] بحيث يصبح الشارع فضاء

---

[1] الزلزال: ص 173.

[2] سليم بتقة: تلمسات نظرية في المكان وأهميته في العمل الروائي ، مجلة المخبر ، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة ، الجزائر ، ع 6، 2010 م، ص 27 .

[3] عبد الرزاق بن دحمان: تاريخ المكان وتخيل المرجع في رواية الزلزال، ص 489.

[4] عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية ، دار عالم المعرفة ، الكويت ، د ط ، 1998 م، ص 135 .

خاصاً يصعب الإمساك به فهو لا يعرف الثبات ، عالم متغير تسكنه كل الفصائل « إنه صعب وشرس على حد تعبير ياسين ناصر فهو يلغي كل شخصية لا تحسن وضع أقدامها عليه كما يضيع كل فكر لم يحسن الدخول إلى زواياه »[1]

وإذ وقفنا على رواية " الزلزال " نجدها تعج بأسماء الشوارع ، بحيث يدخل الشيخ بوالارواح المدينة في انتظار الصورة التي طبعت في ذهنه حولها، إلا أنه يحصل ما لم يكن متوقعا ، فتندمج الشوارع بين الماضي والحاضر ، إذ كان الاستهلال بشارع "بالمهيدي" هذا الشارع الذي يحمل في طياته أمجاد المدينة ، تقول الرواية « **استدار بعد أن أغلق الأبواب ليصعد مع شارع بالمهيدي ثم توقف ، حدق لحظة ثم التفت إلى السيارة ، أعاد تفقد أبوابها الأربعة ليطمئن أكثر إلى أنها مغلقة** » [2] وأخذ يقلب الشارع معلقا عليه « **كل شيء في هذه الناحية يبدو على عهده خضرة الأشجار تميز النباتات وتباينها . هناك الثانوية، وهناك المستشفى، وهناك مخزن الحبوب الشاذ الوضع ، وكأنما لم يفكر واضعوه إلا في إقامة دليل متواصل على أن المدينة أساسا عاصمة فلاحيه [...] ارتفع الآذان ، ونشط قلب الشيخ عبد المجيد بوالارواح ، واستدار مقرا العزم على الصعود مع الشارع الذي غمره بمختلف روائح النباتات ، والطبخات والعطور ، ويسيل من السيارات المنحدرة ، ومن الراجلين والراجلات في جميع**

---

[1] ياسين النصير: الرواية والمكان (دراسة المكان الروائي)، دار فينوي، سوريا، دمشق، ط2، 2010 م، ص 112.

[2] الزلزال: ص 5.

الاتجاهات »[1] بدا كل شيء كما هو مع اختلاف بسيط يكمن في عدد السيارات والراجلين، إلى الآن مازالت تلك الصورة الجميلة لم تغادر ذهنه، لكن ما إن يبدأ رحلة السير يتبعثر كل شيء، و يتيه بوالارواح في عالم لا يعرفه، تغير وغير معه كل ما في المدينة ، حتى نظرة الشيخ قد تغيرت وكان هذا التغيير باديا على كل شوارعها ، فها هو شارع بالمهيدي على حد تعبيره في الرواية « **قويت روائح المأكولات ، عندما اقتربت من شارع بالمهيدي منبعثة من اليمين إلى جانب رائحة البول ، أدمغة مشوية فلفل مقلي بيض مسلوق ، كباب، ملوخية ، بطاطس مسلوق كفتة ، بول شائط . القلب ينتفخ مملوءاً بالدرن والخز**» [2] هكذا كانت شوارع المدينة في جل صفحات الرواية لم تسلم من هذا الثوب المشوه الذي ألبسها إياه هذا الرجل الإقطاعي ، ظل ينعي ذلك الزمن والذي كان زمانه لا زمان غيره « **هذا شارع فرنسا سابقا يبتدئ حيث ينتهي شارع (كراما) حيث ثانوية (أومال) هنا كان الحب والغرام والحبور والمرح ، يشع من عيون الغادات الأوربيات والإسرائيليات ، هنا ما كانت تنقطع روائح الياسمين وعطر الحلم الذهبي وعطر اللبان [...] إلا أنه ما أن كاد يلقي نظرة على أرضية الشارع حتى توقف. الغبار يتصاعد البصاق يلمع مع الشمس الناس غادون رائحون في عجلة من أمرهم، بعضهم**

---

[1] ينظر الزلزال: ص6 ـ 7.

[2] الزلزال: ص 57.

يحمل ديكا روميا، وبعضهم يحمل سلة بيض، وبعضهم يدفع عربة صغيرة فوقها صندوق طماطم، أو بصل أو ثمار الصبار» [1]

كما استندت رواية " ذاكرة الجسد " على شوارع المدينة في السرد، إذ نجد الروائية " أحلام مستغانمي" تطرقت إلى الشوارع متخذة من الوصف ملجأ لها، فهي لم تخصص شارعاً على غيره، بل كان جل حديثها كان عن شوارع المدينة في عمومها ، بحيث لم تختلف عن شوارع المدن الأخرى « فهي متشابهة تختلط فيها أصوات الباعة ولا فرق بين أن تمشي أو تجلس أو تتوقف، فهذه الشوارع كلها تدور في حلقة مفرغة وخالد كغيره من الناس مندفع مع هذه الحركة دون وجهة محددة ، كما تصف الكاتبة كثرة المآذن وما يقابلها من صحون هوائية [...] ثم تصف الناس في هذه الشوارع وهم ببدلاتهم الرمادية الحزينة على تشابهها، ومجموع النساء الملتحفات بالسواد وأفواج الناس المزدحمة على المساجد »[2] فكل شيء في هذه المدينة مثقل بالملل جراء التكرار لهذه المشاهد اليومية التي لا تتغير حتى بعد آلاف السنين .

وإذا ما بحثنا في التخطيط الجغرافي لشوارع هذه المدينة نستطيع أن نقول: « هي تتباين في أنظمتها من حيث الاتساع والضيق، وتتميز بضيقها وشدة إلتوائها في

---

[1] الزلزال: ص 26.

[2] ينظر الأخضر بن السايح : سطوة المكان وشعرية القص(في رواية ذاكرة الجسد) دراسة في تقنيات السرد ، ص 140 ـ 141.

المدينة القديمة، بينما تأخذ في الاتساع النسبي والاستقامة في الأحياء الجديدة ووظيفتها الأساسية هي ربط الشوارع المحلية بداخل الأحياء والمناطق السكنية ، ولهذا فهي في معظمها شوارع تجارية »[1]

2 ـ 3 المقاهي: تمثل المقاهي أحد الأماكن المفتوحة وبؤرة تنشطها مختلف المواضيع سياسية، اقتصادية، اجتماعية ، رياضية، وحتى الأدبية، كما أنها مركز أخبار المدينة والعالم إن صح التعبير، فهي مقصد العديد من الناس على اختلاف مستوياتهم، إذ يستبيحون جلوسها و يجدون فيها ملاذا لهم خصوصا بعد مشقة العمل .

« تحتوي المقهى على جزئيات تجريدية مقارنة بما يحتويه البيت: فالتخت والطاولة ، الشاي والموقد هي من صميم تركيبة المحلة الشعبية ، لكنها هنا تكتسب قيمة جمالية لا تشبه مثيلاتها في البيوت، وتأتي هذه القيمة من الأثاث الذي يطل على نوافذ الشوارع ، وعلى نهاية المنطقة وعلى مختلف أبعاد الباحة الداخلية ، كما أنها لا تصبح ملكا لأحد بحكم أنها ليست جزءا من تركيبة خاصة بأحد ، وبأعمدة المقهى ، وارتفاعها ووسط الفضاء الداخلي تُصنع راحة نفسية لا تشبه تلك التي يعيشها المرء في بيته

---

[1] محمد الماوي المعروف: مدينة قسنطينة (دراسة في جغرافية العمران)، ديوان المطبوعات الجزائرية ، بن عكنون، الجزائر، د ط، 1984 م، ص 317 .

المزدحم ، فالجالس في المقهى يستطيع أن يمد ببصره ، حتى وهو يعمل ، كما يستطيع أن يمد بفكره [...] فالمقهى ملتقى الولادات الفكرية و منطلق لها كذلك » [1]

لقد كانت المقهى في كلتا الروايتين، أحد العناصر المساهمة في بناء المكان ، ففي رواية " الزلزال " كان المقهى يعاني من نفس المعاناة التي آلت إليها المدينة بحسب تعبير بطل الرواية أن « كل المدينة تغيرت ، تغير عدد السكان ، تغيرت ملامحها في شكل بناياتها ، ومتاجرها ومقاهيها ومطاعمها ، تغيرت طبيعة الناس رجالا ونساء»[2] بحيث كانت المقاهي في ذلك الوقت لا تستقبل إلا الوجهاء و أصحاب النفوذ والسلطة، كما لا يطؤها فاقد هذه الأشياء « **إيه نزل باريس، النزل الكبير، المقاهي العظمى الثلاث المشرفة على الساحة ، هنا كان الملتقى . الموظفون والمسلمون، كبار الفلاحين والمعمرين . الأغوات والباشغوات ، كبار أصحاب الأعمال والتجار هنا كان الدخول ممنوعا على الرعاع. كانت الهيبة وحدها تمنع الأهالي من الولوج ، ستائر البلور والحرير ترفرف وروائح عطور باريس تعبق ، والندل في هيئات وبدلات أكثر جلالا ورهبة من هيئات وبدلات ضباط العهد** »[3] هكذا كان تعليقه حول المقاهي ، مكان ينفرد عن الأمكنة الشعبية، مختلف تماما بحيث يزيد الجالس فيه علوا ووقارا ، وفي نفس

---

[1] ياسين النصير: الرواية و المكان، ص80.

[2] مصطفى فاسي: دراسات في الرواية الجزائرية ، دار القصبة ، الجزائر ، د ط ، 2000 م، ص 29 .

[3] الزلزال: ص 56.

الوقت هو مكان يندد بالطبقية يقسم المجتمع إلى قسمين، بحجة الارتقاء بالمدينة وعلى أنه أسلوب الحياة الصحيح الذي يضع كل واحد في مكانه المناسب ، فهاهو الشيخ عبد المجيد بوالارواح يقول حول مقهى البهجة « **كان في ذاكم الزمن وكرا للمثقفين من كامل الولاية ، لا يشعر الغريب الذي يدخله إلا والنادل يقف عند رأسه هامسا : ثمن مشروبك مدفوع . من دفعه ؟؟ قسنطيني حر يأبى أن يعلن نفسه. كانت الحمية الوطنية تنموا هنا، كانت البرجوازية الصغيرة تعلن نفسها من هنا والآن ؟! لا حول ولا قوة إلا بالله ... اللافتة لا تزال تعلن (البهجة)، والطلاء متحلل، دقات الحجر تنبعث من الداخل قوية، بدل صوت فريد الأطرش المنساب:" بساط الريح بساط الريح جميل ومريح "، لم يبق من الحياة السابقة إلا الآثار... هدموا عالمنا وأقاموا آخر**»[1] ومنه يقف مذهولا لهول الوضع الذي آلت إليه هذه الأمكنة ويتأسف عليها وعلى زمانها الذي ذهب ولن يعود .

كما تحن " ذاكرة الجسد " هي الأخرى إلى هذه المقاهي التي تحمل أصالة المدينة وتراثها، المقاهي التي تتعدد بتعدد علمائها يقول خالد بن طوبال « **أمشي نحو الماضي مغمض العينين ... أبحث عن المقاهي القديمة تلك التي كان فيها لكلّ عالمٍ أو وجيهٍ مجلسه الخاصّ فيها ، حيث كانت تعدّ القهوة على الوجاق الحجريّ وتقدّم بالجزوة ...**

---

[1] الزلزال: ص29.

ويخجل نادل أن يلاحقك بطلباته، كان يكفيه شرف وجودك عنده ، في ذلك الزمن كان لابن باديس المقهى الذي يتوقّف عنده ، وهو في طريقه إلى المدرسة كان (اسه مقهى بن يامينة) كان هنالك (مقهى بوعرعور) حيث كان مجلس بلعطّار وباشتارزي وحيث كنت ألمح أبي أحيانا و أنا أمر بهذا الطريق »[1] ظلت هذه المقاهي محفورة في ذاكرته محاولا العثور عليها في واقعه لكن دون جدوى « فهي متشابهة على كثرتها وحزينة كالناس الذين يؤمونها . وهكذا تعطي الكاتبة للمقهى القديم صفة الإجلال واللياقة »[2] كما أنها تحاول أن تقول أن هذه الأمكنة زالت بزوال أصحابها أولائك الذين كانوا يساهمون في نشاطها وسببا في استقطاب الناس إليها ومن ثم نجد « هذه الأمكنة كدلالات نفسية تتميز بالعلاقات التأثيرية التي تقوم بين الإنسان والمكان ، فيغدو المكان محمولا نفسيا خبريا في ذات الكائن ، ويتحول إلى دلالات رمزية شاعرية وشعرية »[3] تسكنه في أعماقه تاركا لها مكانها الخاص في الذاكرة .

---

[1] ذاكرة الجسد: ص211 .

[2] صالح مفقودة : قسنطينة والبعد الحضاري للمكان في رواية ذاكرة الجسد ، ص 447 .

[3] الأخضر بن السايح : سطوة المكان وشعرية القص(في رواية ذاكرة الجسد) دراسة في تقنيات السرد ، ص 145، نقلا عن سليمان حسين ، مضمرات النص والخطاب ، دراسة في عالم جبرا إبراهيم جبرا ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1999 م ، ص305.

3 ـ قسنطينة الوجه الآخر:

تتمظهر فكرة الوجه الآخر حقيقة مشتقة من عالم الرواية، وذلك لنقل رؤية معينة تتضافر بداخلها عدة وجوه، نمثل منها ما يلي:

3 ـ 1 السجن: وهو المكان الذي يكون غالبا غير مرغوب فيه ، وكثيرا ما يوجد في حياة الفرد بصفة دخيلة، وهو أيضا أحد الأمكنة التي توحي بالغموض ، فداخل هذا النطاق تتعدد الحكايات وتختلف الأسباب لمناقشة الاستبداد والظلم عن طريق « الانغلاق وتحديد حرية الحركة وخضوع المقيمين فيه للقانون الصارم [...] فهو حيز للمشاعر الفردية وللموقف الشخصي»[1]

ويعد سجن " الكدية " بقسنطينة معلما لتاريخ الجزائر، يشهد على صمود الشعب الجزائري وبشاعة الاستعمار الفرنسي ، هذا السجن الذي كان سببا في لقاء خالد وسي الطاهر أين غرس فيه روح النضال وانتقل به إلى حياة أخرى مختلفة عن التي كان يعيشها ، حياة لا يتميز ليلها عن نهارها ، يقول خالد بن طوبال في الرواية: « **سجن (الكديا) كان موعدي النضاليّ الأوَّل مع (سي الطاهر) كان موعداً مشحوناً بالأحاسيس المتطّرفة وبدهشة الاعتقال الأوَّل .... بعنفوانه و بخوفه [...] وكان سجن**

---

[1] عبد الحميد بورايو: منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية الحديثة)، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، د ط ،1994 م، ص123 .

(الكديا) وقتها، ككلّ سجون الشرق الجزائري يعاني فجأة من فائض رجولة، إثر مظاهرات 8 ماي 1945»[1] فعلى الرغم من صغر سن خالد في تلك الفترة ، فهو لا يتعدى السادسة عشر إلا أنه « لم يكن السجن بالنسبة إليه عقاباً وقيداً للحرية بقدر ما كان درساً في النضال السياسي »[2] مكنه من بناء شخصية ثورية وطنية ، ظل دائم التمسك بها حتى بعد الاستقلال « ثم إن سجن الكدية هو قاسم مشترك بين المناضلين جميعاً [...] لأن في هذا الجمع نقلت عدوى الثورة إلى مساجين الحق العام الذين وجدوا فرصة للوعي السياسي »[3] إذ يصف خالد بطل الرواية كيفية تماسك هؤلاء المساجين مع بعضهم بعضاً دعماً للمناضلين والثورة يقول: « **في زمن كنّا نردّد هذا النشيد في سجن قسنطينة . كان يكفي أن ينطلق من زنزانة واحدة، لتردّده زنزانات أخرى، لم يكن مساجينها سياسيّين [...] كنا شعباً واحداً ترتعد الجدران لصوته. قبل أن ترتعد أجسادنا تحت التعذيب»** [4]

وهكذا بات سجن الكدية أحد هواجس المدينة، ومخلفات معاناتها التي كانت تتخللها تجربة خالد داخله « فيظهر كفضاء لقمع الحريات وسلب الحقوق، تبدو همجيته

---

[1] ذاكرة الجسد: ص 30 .

[2] صالح مفقودة: قسنطينة والبعد الحضاري للمكان في رواية ذاكرة الجسد ، ص244.

[3] ينظر الأخضر بن السايح: سطوة المكان وشعرية القص(في رواية ذاكرة الجسد) دراسة في تقنيات السرد، ص149 ـ 150.

[4] ذاكرة الجسد: ص 319 .

من خلال معاناة الفرد القسنطيني [...] جراء حقارة المستعمر الفرنسي »[1] فاسجن من خلال ذاكرة الجسد كان محصوراً في هذا المعنى بحيث « لم تتوقف الكاتبة عند وصف هذا السجن وصفاً هندسياً وإنما اكتفت بالأحداث التي جرت فيه »[2]

أما فيما يخص رواية "الزلزال" فكان السجن حاضراً بمفهومه العادي لا يمس ذات البطل وإنما يتطرق إليه من خلال شخصيات أخرى، بغية إيضاح الدور الأساسي الذي وجد من أجله، والذي يكمن في إصلاح الناس والمجتمع والمحافظة على الاستقرار، باعتباره جزءاً من الفضاء المجتمعي .

« تمضي الرواية في نقدها للنظام من خلال عرض الجوانب السلبية للحياة اليومية في المدينة والتي يرصدها الكاتب من خلال تيار وعي البطل بوالارواح [...] حقيقة أن الواقع الجديد بعد الاستقلال بدأ يظهر التناقضات والظواهر السلبية من تفشي الفقر في الأوساط الشعبية وتنامي السوق السوداء والدعارة وغير ذلك .....»[3] من هنا تبرز وظيفة السجن في الرواية انطلاقاً من بصيرة بوالارواح، على أنه المكان الذي

---

[1] مريم بغيبغ: قسنطينة في الرواية الجزائرية المعاصرة ، ص77 .

[2] الأخضر بن السايح : سطوة المكان وشعرية القص (في رواية ذاكرة الجسد) دراسة في تقنيات السرد، ص 151.

[3] دبي كوكس: روايات الطاهر وطار بين خطاب السلطة والنقد الاجتماعي ، مجلة التبين الجاحظية ،الجزائر ، ع 16، 2000 م، ص 42 .

يعكس واقع المدينة المتدني « وبذلك فالسجن هو بمثابة الحقيقة الثابتة في المجتمعات الخاوية من الحرية »[1]

3 ـ 2 المقبرة: تتجلى المقبرة في البعد المأساوي للحياة ، فهي المكان الذي لا تخلو منه أية مدينة، إذ يعبر عن النهاية الحتمية للإنسان، والتي لابد من الرجوع إليها « كما يرتبط اسمها دوماً بحالات الأسى العميق والحزن الدفين ، لا تذكرك إلا بلحظات الفراق وأنين العزلة وغبن الوحدة، فهي رمز الموت والاندثار والتلاشي والفناء تسرق بسمة الحياة من الشفاه ، وتثير الفزع والخوف في النفوس »[2] تبقى دائماً مرتبطة بجانب من حياة الفرد ، هكذا كانت المقبرة عند خالد بن طوبال في "ذاكرة الجسد" بحيث تستحضر الروائية "أحلام مستغانمي" المقبرة لتجعل منها مزاراً تلجأ إليه الذات للإنفراد بنفسها في لحظات من التأمل، وانطلاقاً من الماضي الحزين إلى الحاضر المرير.

يقف خالد عند قبر أمه واصفاً إياه « **عند قبرها الرخامي البسيط مثلها، البارد كقدرها... والكثير الغبار كقلبي ، تسمّرت قدماي ، وتجمّدت تلك الدموع التي خبّأتها لها**

---

[1] هنية جودي : صورة المكان ودلالاته في روايات واسيني الأعرج ، رسالة دكتوراه ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، 2013/2012 م ، ص193 .

[2] نصيرة زوزو: بناء المكان المفتوح في رواية طوق الياسمين لواسيني الأعرج ، مجلة المخبر ، بسكرة ، الجزائر ، ع 8، 2012 م ، ص 32 .

منذ سنوات الصقيع والخيبة هاهي ذي (أمّا).... شبر من التراب، لوحة رخاميّة تخفي كل ما كنت أملك من كنوز»[1]

ومن ثمة ندرك أن الأم لم تكن هي المسعى الوحيد خلف هذا القبر، فهو يخفي خلفه كل أهداف خالد التي فقدها ولم يستطع تحقيقها، وحياة كانت أحد هذه الأهداف ، فصورها كأنما تجتمع مع أمه في قبر واحد ، لأنهما المرأتان اللتان سُلبتا منه بالقوة دون رغبة منه ، وهكذا « تظل نبرة الحزن واليأس ملازمة لخالد ، مما يجعله يزور قبر أمه ويعتذر له، هذا القبر البارد الكثير الغبار كقدرها في حياتها حين عانت المصائب والويلات والجحود من والد متحجر جاحد لحقوقها ، فكان قبرها مثل حياتها ملئ بالغبار لم يذق طعم الراحة والاستقرار»[2]

والرواية لم تقف عند قبر والدة خالد فقط ، بل تعددت القبور فيها ، إلى قبر سي الطاهر وقبر حسان كما كانت الإشارة إلى قبر زياد من خلال تيمة الموت ، وهكذا يجد خالد نفسه في امتداد مع هذا المكان ، مرتمياً إليه ليتشارك معه الحياة ، باعتبار« القبر هو المثوى الأخير الذي ينام فيه الإنسان نومه الأبدي والمكان الأخير الذي يؤول إليه كل من ذاق الموت ، حيث السكينة التامة والصمت المطلق، مكان واسع لا يضيق يتوحد فيه

---

[1] ذاكرة الجسد: ص329.

[2] الأخضر بن السايح : سطوة المكان وشعرية القص(في رواية ذاكرة الجسد) دراسة في تقنيات السرد ، ص 129.

الزمان والمكان فيتحولان لشئ واحد....فهو مكان لا متناه يضم كل أنماط المكان ودلالاته »[1]

كما يشير الروائي " الطاهر وطار" في رواية " الزلزال " إلى المقبرة من خلال الشيخ عبد المجيد بوالارواح الذي يقول:« **في المقابر يضعون الماء فوق القبر، ويغرسون عند رأس الميت هذا النوار، هذه مقبرة واقفة ، سيمددها سيدي راشد عما قريب** »[2] فهو بهذا يلجأ إلى المكان الذي يخفف عنه الشعور بالثقل، ما إن يتحقق مبتغياه.

3 ـ 3 المزبلة: تمثل المزبلة أحد العناصر الملفتة للانتباه في الرواية، والتي تنتهي إلى مكان مغمور بالنفايات و الفضلات، وغالباً ما يكون هذا الأخير بعيداً وخارجاً عن التجمع السكاني ، حفاظاً على صورة المدينة ونظافتها وتجنباً للأمراض و الأوبئة وكذا الروائح الكريهة، إلا أن الأمر خرج عن السيطرة، وأصبحت هذه الأماكن منتشرة بكثرة خصوصاً في المدن الكبيرة ، جراء « توسعها وزيادة سكانها أو لذلك التحضر السريع الذي آلت إليه المدن، بحيث صار معدل الزيادة السكانية أكبر بكثير من معدل إنتاج الغذاء [...] مما تسبب في تعقد المشاكل القديمة ، و وبروز الجديدة منها كنقص الأماكن الصحية وتدهور الأحياء القديمة وانتشار مناطق الإسكان العشوائي غير المخطط، واختفاء المساحات

---

[1] هنية جوادي: صورة المكان ودلالاته في روايات واسيني الأعرج ، ص130 .

[2] الزلزال: ص111.

الخضراء والحدائق العامة بالإضافة إلى مشاكل النظافة وتدهور شبكات الصرف واختفاء اللمسات الجمالية » [1]

وقد لاقت المزبلة ـ كمكان ـ حضورًا بارزًا في رواية " الزلزال " إذ تتكرر بين الفينة والأخرى من بداية الرواية حتى نهايتها، وهذا لتبيان الحالة المزرية التي آلت إليها المدينة والتي تسببت فيها عدة عوامل، كارتفاع نسبة النمو الدمغرافي والنزوح الريفي وكذا الفقر ، إذ يقول الشيخ عبد المجيد بوالارواح: « **دخان أزرق كأنه لبركان يخرج في تثاقل من أماكن متعددة منتشرة على مساحة كبيرة: مزبلة بولفرايس الشهيرة** »[2] هكذا كانت بدايتها في الرواية إذ يحاول الراوي أن يقول لنا، أن لهذه المزبلة صيتها في المدينة ولا يوجد أحد لا يعرفها ، بحيث تتضح « لنا سخرية الراوي وهو يصف لنا المزبلة بالشهيرة ، ربما تستمد شهرتها من كثرة الدخان المنبعث منها .....وكذلك من اسمها: بولفرايس الذي يوحي باحتوائها الكثير من الجيف المنتشرة هنا وهناك والتي تمدها بالرائحة الكريهة، إلا أن شهرة هذه المزبلة اكتسبتها من واقع الحياة القسنطينية ومعاناة الفرد القسنطيني الذي مازال يسكن أكواخاً مجاورة لهذه المزبلة هذا ما يجعل هذا الفضاء الوسخ نموذجاً لطابع الفقر الذي تتميز به الأكواخ السكنية القريبة منه حيث جعلت منه مكاناً

---

[1] صالح لعريبي: البيئة الحضرية داخل الأنسجة العمرانية العتيقة والتنمية المستدامة(حالة قسنطينة)، ص64.

[2] الزلزال: ص35.

يقتاتون منه قوت يومهم »[1] بل أصبحت هذه المزبلة عالماً مستقلاً بذاته تتضارب فيه كل ما لا تستطيع الحياة احتماله « **كانت إحدى شاحنات البلدية تحمل علب مصبرات فاسدة صودرت من مختلف المتاجر، ما أن أفرغت الشاحنة حمولتها حتى هجم عليها (هاجوج و مأجوج) وما (هاجوج ومأجوج) هذا ؟ خلق كثير من سكان الأكواخ شيوخ وكهول وأطفال، ذكور و إناث، يحومون طوال السنة حول مزبلة بولفرايس يلتقطون الفضلات والمرميات** »[2] فهذه المزبلة لم تكن فقط للأطفال المشردين بل عرفت كل الفئات، أناس رمت بهم الحياة وسط هذا المكان المقرف، لتستقبلهم حياة أخرى لا يوجد للضعيف فيها مكان، تذكرك بالحياة القبلية للإنسان البدائي حيث القوي يأكل الضعيف و بالطبع البقاء للأقوى، على الرغم من أن الجميع يدور في بؤرة واحدة لا يعتريها إلا البؤس .

3 ـ 4 واد الرمال: تنتقل بنا الرواية إلى قلب مدينة قسنطينة، وبالتحديد إلى أحد هواجسها الطبيعية، " واد الرمال " هذا الذي يفيض من زمن إلى آخر ليذكر الناس بوجوده، المتوغل في عمق المدينة يحمل في تجاويفه معاناة الناس و أحزانهم والتي بقيت راسخة تتناقلها أفواه الأجيال مستقلة في نفوسهم مشكلة ردعاً اتجاه هذا العملاق النائم وسط المدينة .

---

[1] مريم بغيبع: قسنطينة في الرواية الجزائرية المعاصرة ، ص77.

[2] الزلزال: ص52.

ويعود في أصل تكوينه إلى عصور ماضية من الزمن « عندما بدأت تنحت الصخر الكلسي وتوسع الشقوق الموجودة فيه وتعمقها، وبالتدرج وإضافة إلى العوامل الكيماوية والميكانيكية، اتسعت هذه الشقوق، فظهرت المغارات وتسربت المياه إليها وبهذه الطريقة كون الوادي سلسلة من الدهاليز، التي بدأت تسقط الواحد تلو الآخر وبهذه الصورة تكون الأخدود الحالي »[1] ومنذ ذلك الوقت أصبح الوادي أحد أضلاع المدينة ومكوناً أساسياً لجغرافيتها، وملجأ لكل من صُدت في وجهه أبوابها ، يقول خالد بن طوبال من أعالي أخدود الوادي: « **كنت أدري في تلك اللَّحظة وأنا أنظر إلى الوهاد العميقة تحتي، إلي تلك الأنفاق الصخريّة التي يشطرها نهر الرمال ببطءٍ زبدي أنّ (الهاوية الأنثى) كانت تستدرجني إلى العمق، في موت شبقيّ أخير، ربَّما كانت فرصتي الأخيرة للتوحّد الجسديّ مع قسنطينة** »[2] فهذا الأخير يُكون رغبة غامضة لنهاية ممتعة مهدت لها بداية حزينة « **كان جدّي يومها أضعف من أن يقف بمفرده في وجه ذلك الأمر القاطع بالقتل وكان أيضاً أكبر من أن يقاد ليقف بين يدي ذلك الباي ذليلاً .... ولذا عندما أرسل الباي من يحضره إليه ... كان جدّي جثّة في هوّة سحيقة كهذه ، أسفل**

---

[1] محمد الماوي العروف: مدينة قسنطينة (دراسة في جغرافية العمران)، ص 21 .

[2] ذاكرة الجسد : ص295 .

واد الرمال . رفض أن يمنح الباي شرف قتله »[1] وكثيراً ما تكررت هذه النهاية وكل مرة يعيد التاريخ نفسه مع الإنسان القسنطيني.

يقول الشيخ عبد المجيد بوالارواح في رواية " الزلزال ": « **عندما يختار سيدي راشد الحل الثاني، ويحركها بهم وبمنكرهم وفجورهم، لن يضطر إلى جهد كبير هنا يكفي أن تهوي عمارة واحدة من عمارات (الكدية) على هذه الأكواخ لتطمسها. مجاري المياه وحدها تقذف بها إلى وادي الرمال** »[2] فهذا هو عقاب المدينة الذي يخشونه ويتأهبون للوقوع فيه ، والمتوغل في الرواية يدرك أن هذا المكان/ واد الرمال متعدد الدلالة مكثف الرموز ، مطلقاً العنان إلى أكثر من بعد، خلافاً لصفته الحقيقية فهو يمثل: قسنطينة ، المرأة ، الموت ، الخيانة .....الخ.

4 ـ قسنطينة التراث:

تعرض لنا الرواية القسنطينية طرفاً آخراً من هذه المدينة ، أين تعكس فيه ملامح المجتمع القسنطيني عبر ذلك الإرث الشعبي الذي يعود للسكان الأصليين لهذه المدينة والمتمثل في القدرة الإنسانية العامة وغير الفردية .

« والذي يتجول في شوارع المدينة ويمشي بين الناس يكتشف أن قسنطينة مدينة لا تقبل التنازل عن عاداتها وتقاليدها ، ترفض بكل ما أوتيت من قوة وإرادة التخلي عن

---

[1] ذاكرة الجسد: ص293.

[2] الزلزال: ص124.

ماضيها وتقاليدها الشعبية من خلال الحفاظ عن تراثها الغني والمتنوع ، في الحرف التي أبت أن تزول مع مرور الزمن ، وفي الموسيقى الأصلية التي بقية صامدة مع كل جديد ومع كل التطورات التي لحقت بالموسيقى في عصرنا ، على كل حال لا تنفك رائحة التراث الشعبي تنبعث من أحياء وشوارع وأزقة المدينة وبيوتها، عدا تلك التقاليد التي هجرها الناس، لكن عبقها وأريجها مازالا يحتلان مساحة كبيرة في مخيلة وذاكرة الناس.

كما تجيد مدينة قسنطينة إظهار فتنتها وزينتها، وتعرف جيداً متى وكيف تتجمل بثوب ثقافتها الشعبية الذي يميزها عن باقي المدن [...] إنها تزخر بألوان متعددة من المواسم والاحتفالات ولوحات متعددة من اللباس والصناعات الحرفية والأغاني، وقد تحول ذلك مع الزمن إلى أسلوب عيش وسلوك ونمط حياة »[1]

كل هذا وذاك ينبع من ظروف الأمة الخاصة، والناس هم الذين ينسجون هذه الثقافة، بحيث يتمسكون بها من جيل إلى جيل ومن زمن إلى زمن بهدف حفظ الذاكرة، التسلية، والفرجة وكذا الشعور بالفخر والاعتزاز حيال مآثر الأجداد عند إحيائها، وتكمن هذه المواد والنتاجات التراثية في« المعتقدات الشعبية والحكاية الشعبية والملاحم والموتيفات الأسطورية، والاحتفالات الشعبية والطقوس والرقص الشعبي والموسيقى الشعبية سواء كانت آلية أو تعتمد على آلات موسيقية[...] و الألغاز والأمثال

---

[1] ينظر بومدين بلكبير: قسنطينة شذرات من الذاكرة ، مجلة العربي، الكويت، ع أكتوبر 671 ، 2014 م، ص 93.

والممارسات الشعبية ذات الصلة بالمعتقدات الدينية، وكثيراً من مظاهر الحياة الشعبية المتنوعة، هي كلها تشترك في مجموعة من السمات الأساسية، من قبيل أنها مأثورة وغير معروفة الأصل تماماً كما أنها قاسم مشترك بين أفراد الجماعة »[1]

4 ـ 1 الأغنية الشعبية: هي ما يميز التراث في المدينة، ويعبر عن طابعها الفني، كما أنها أرشيف لقصص الحب والغرام، والحكايات الشعبية « أثبتت مرونتها ورحابتها لاستعاب كل اهتمامات الشعب وخواطره عبر العصور والأزمان من خلال ذيوعها وانتشارها و قربها إلى الخاطر والوجدان، فبناء الموسيقى واختيار الكلمات وطريقة وضعها إلى جانب بعضها البعض، من قدرة على الانتقال من الفم إلى الأذن إلى القلب، فيعمل هذا على خلق متعة جمالية تناسب النص الغنائي، وتزيده جاذبية وتأثير على المتلقي»[2] كما أن هذا النوع من الأغاني يرتبط باحتفالات خاصة، ففي الماضي البعيد كانت هذه الأغاني وسيلة يقطع بها الناس أوقات فراغهم وليالي سمرهم ، أما في وقتنا الراهن أصبحت تستحضر هذه الأغاني في أعراس الزواج أو حفلات الختان« وعادة ما تكون هذه الأغاني جماعية بمعنى يستطيع أي شخص أن يشترك في أداء

---

[1] عزام أبو الحمام المطور: الفلكلور(التراث الشعبي), الموضوعات, الأساليب, المناهج، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008 م ، ص 55.

[2] ينظر فتيحة غزالي، دليلة مكسح: فعاليات الأغنية الشعبية في تحريك أحداث الثورة التحريرية بمنطقة جمورة، دار علي بن زيد للطباعة والنشر ، بسكرة ، ط1، 2012 م ، ص 53 ـ 54.

الأغنية، بالإضافة أنها تعتمد على قدرة المطرب في الأداء، وعدم اهتمامه بالتسلسل المنطقي الخاص بالأحداث التي تحكي عنها الأغنية » [1]

تعرف قسنطينة بأغنية "الأندلسي" أو " المالوف " على وجه الخصوص، والتي لطالما كانت وساماً تتزين به أعراسها واحتفالاتها، حيث لا تخلو المناسبات والأفراح من هذا الطابع الغنائي الذي يعود في أصله إلى الأندلس هذه الحضارة التي امتزجت نوعاً ما بالحضارة الإسلامية « ثم إن قسنطينة وبحكم تموقعها بالشرق فإنها كانت مهيأة لتلقي المؤثرات الفنية المحلية منها والأجنبية، تسربت إليها الخصوصيات المشرقية بعدما زحفت جحافل الأعراب [...] إلى المغرب الأوسط واجتازت جانباً كبيراً منه، فتطبع المالوف بذلك الطابع البدوي الراسخة أثاره فيه إلى اليوم، يتبين ذلك جلياً في امتداد نبرات الغناء وحدتها وامتزاج الرنة الأندلسية بالصيحة البدوية ووجود نظام المسافات وربع البعد المميز لضروب الموسيقى والغناء في المشرق سواء أكانت عربية أم فارسية أم تركية، هذه الأخيرة ذاتها قد تركت سبغتها الواضحة في المالوف حيث أضافت إليه افتتاحات موسيقية على أسلوب البَاشْراف التركي [...] إذ يتصدر كل القطع الموسيقية و الغنائية، ويلحظ

[1] فاروق أحمد مصطفى، مرفت العشماوي عثمان: دراسات في التراث الشعبي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 2008 م ، ص 205.

هذا التأثير التركي أيضا في طريقة ترنيم بعض المقاطع الصوتية كا....آمان.....آمان التي تريد التوسل والاستعطاف »[1]

وفي حديثنا عن الأغنية الشعبية والمالوف في قسنطينة نتطرق إلى رواية "ذاكرة الجسد" باعتبارها أحد المحاور الأساسية في هذه الدراسة، فقد استعانت هذه الأخيرة بالأغنية القسنطينية في نسجها وسردها للأحداث، إذ حاولت الروائية " أحلام مستغانمي" أن تبرز مدى أهمية الأغنية في التراث القسنطيني، على أنها ليست وسيلة يعبر بها عن فرح في وقت معين وتنتهي بانتهاء ذلك الوقت، بل هي قصة تاريخ برمته يستعيد أمجاده في كل فرح من أفراح المدينة، يقول خالد بن طوبال في الرواية: « **في انتظار ذلك....هذا العرس عرسهم. فليأكلوا وليطربوا. وليرشقوا الأوراق النقديّة. وليستمعوا للفرقاني يردد كما في كلّ عرس قسنطينيّ أغنية (صالح باي) تلك التي مازالت منذ قرنين تُغنّى للعبرة، لتذكّر أهل هذه المدينة بفجيعة (صالح باي) وخدعة الحكم والجاه الذي لا يدوم لأحد...والتي أصبحت تُغنّى اليوم بحكم العادة للطرب دون أن تستوقف كلماتها أحداً....**

" كانوا سلاطين ووزراء ماتـوا وقبلنا عــزاهــمْ

نالوا من المال كُثــرةْ لا عزّهـــم ...ولاغنــاهُمْ

(1) ينظر سميرة زغبيب: المالوف من الأندلس إلى قسنطينة، دار مداد، ط1، 2009 م ، ص 171 ـ 172.

قـالـوا العـرب قـالـوا مانعطيو صالح ولا مالُو.."

أتذكّر وأنا أستمع لهذه الكلمات، أغنية عصريّة أخرى وصلتني كلماتها من مذياعٍ بموسيقى راقصة.....تتغزّل بصالح آخر" صالح .....ياصالح.....وعينك عجبوني ...." إيه قسنطينة لكلّ زمن (صالحه) ....ولكن ليس كلّ(صالح) بایاً وليس كلّ حاكم صالحاً»[1]

تلجأ الكاتبة في سردها للأحداث دائماً إلى ثنائية الماضي والحاضر، وهذا من خلال أن حاضرنا ما هو إلا امتداد للماضي الذي مازال راسخاً في المدينة حتى في أغانيها، فصالح باي هو أشهر بايات قسنطينة كما سبق لنا الذكر« حكم المدينة مايقرب عشرين سنة وتحديداً في الفترة الممتدة 1771 إلى 1792 »[2] فمنذ ذلك الزمن إلى وقتنا الراهن مازال هذا الاسم باقياً لم يتلاش على الرغم من المسافة البعيدة، ليدل على وفاء المدينة . كما جاء في الرواية أغنية أخرى لصالح آخر، يعيش في هذا الزمن « فالذي يجمع بين الأغنيتين هو (صالح) ويجمع بين الماضي والحاضر قسنطينة، ويجمع بين البكاء والطرب أغنية صالح كأن الكاتبة تقول، شتانا بين الثرى والثريا بين زمن ولى وانتهى بين ما نحن عليه الآن فلكل زمن صالحه »[3]

---

[1] ينظر ذاكرة الجسد: ص356 ـ355 .

[2] إيمان زيتوني: صالح باي الأسطورة ، ص 15.

[3] الأخضر بن السايح: سطوة المكان وشعرية القص(في رواية ذاكرة الجسد) دراسة في تقنيات السرد، ص 170.

كما تقول الرواية في موضع آخر:« **ها هو ذا(الفرقاني) .....كالعادة....يغني لأصحاب النجوم والكراسي الأماميّة . يصبح صوته أجمل، وكمنجته أقوى عندما يزفّ الوجهاء وأصحاب القرار والنجوم الكثيرة، تعلو أصوات الآلات الموسيقيّة ..ويرتفع غناء الجوقة في صوتٍ واحد لترحِبّ بالعريس:**

" يا ديني ما أحلالي عِرسوُ...بالعوّادة..

الله لا يقطعلُو عادة ..

وانخاف عليه..خمسة .والخميس عليه "

تعلو الزغاريد... وتتساقط الأوراق النقدية »[1]

ثم تنتقل وتقول في موضع آخر: « **كلما تقدّم الليل، تقدّم الحزن بي، وتقدّم بهم الطرب، وانهطل مطر الأوراق النقديّة عند أقدام نساء الذوات، المستسلمات لنشوة، على وقع موسيقى أشهر أغنية شعبيّة:**

" إذا طاح الليل وَينْ انباتُو فوق فراش حرير ومخداتو...

أمان.....أمان..... " » [2]

تحاول الكاتبة في كلتا الأغنيتين أن تنقل لنا حياة الترف والثراء، وكأن الأغنية القسنطينية خلقت لتلبي هؤلاء الناس، الذين لا يأخذون إلا المقاعد الأمامية، والتي تعكس مناصبهم

---

[1] ذاكرة الجسد: ص 354.

[2] ذاكرة الجسد: ص359.

في الحياة العادية، بحيث أنهم أين ما حلوا وارتحلوا يأخذون الصدارة، يستمتعون ويتباهون بها، هذا ما تظهره الرواية من خلال تراشق النقود « هذا المال الذي أخذ بغير حق ويصرف على عجل مثلما أخذ »[1]

4 ـ 2 الحكاية الشعبية: إنه بمجرد الغوص في التراث القسنطيني و البحث فيه تجد نفسك أمام زخم كبير من التنوع في هذا المجال، ومن بين ما يساهم في هذا التنوع الحكاية الشعبية، وذلك للشعبية الكبيرة التي تمتلكها هذه الأخيرة في المدينة .

« والحكاية الشعبية فن يرتكز على سرد خبر متصل بحدث قديم انتقل عن طريق الرواية المتداولة شفوياً عبر الأجيال، مما يجعلها تخضع للتطور عبر العصور، نتيجة للخلق الحر للخيال الشعبي الذي ينسجها حول حدث أو حوادث مهمة بالنسبة للشعب ولذا هو يستمتع بروايتها والاستماع إليها، لأنها تدور حول محور شخوص ومواقف تاريخية يصدقها الشعب بوصفها حقيقية وتعبر عن موقف الأسرة أو القبيلة تجاه الأحداث، وبالتالي تعبر عن رأي الشعب إزاء حوادث عصره وأحواله السياسية والاجتماعية »[2] وقد جاء عبد الحميد يونس بتعريف آخر للحكاية الشعبية حيث يقول فيه: « يكون اصطلاح الحكاية الشعبية فضفاضا يستوعب ذلك الحشد الهائل من السرد القصصي الذي تراكم على الأجيال والذي حقق الإنسان بواسطته كثيرا من

---

[1] الأخضر بن السايح: سطوه المكان وشعرية القص(في رواية ذاكرة الجسد) دراسة في تقنيات السرد، ص168.

[2] رابح العوني: أنواع النثر الشعبي، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة ، دط، د ت، ص35.

مواقفه [...] و لا تعتبر هذه الحكاية لجماعة معينة، وليست نتاج عصر معين، بمعنى أنها من صنع جماعي وامتزاج عصور مختلفة »[1]

ونحن بصدد دراسة قسنطينة بين روايتي " الزلزال " "وذاكرة الجسد " لفت انتباهنا اسماً يشغل حيزاً كبيراً وسط الثقافة القسنطينية ألا وهو اسم (نجمة) هذه الشخصية التي أبى الروائي " الطاهر وطار" إلا أن يستحضرها في رواية " الزلزال " وذلك من خلال مقهى نجمة، التي تلعب دوراً بالغ الأهمية في التعبير عن هوية الأنثى القسنطينية، والتي تتأرجح بين الوفاء والخيانة، ومنه فإن هذه الحكاية اضطربت واختلفت بين أفواه القسنطينيين « بحيث تروي الحكاية الشعبية عن (البوغي) أو (الباغي) يعني المغرم، ونجمة هي إحدى سليلات أرقى عائلات قسنطينة والتي عذبت الكثير بحبها، التقت بجاب الله البسيط الذي قدم من عنابة بغية العمل والاسترزاق، واختلفت القصص حول إن كانت متزوجة أم لا ، وهناك كانت الرسائل الخفية بينهما عن طريق الخدم، وانكشف ما كان يدور بينهما ، بعد أن أعطته نجمة خصلة من شعرها مزينة بجواهرها، فشاع الخبر وأصبح غريماً لعائلة نجمة، في وقت كان العرف والتقاليد يحكم المجتمع القسنطيني. وحسب الروايات فإن ساعد ظل يحمل حب نجمة لسنين ورفض الزواج وأصبح مغنياً مشهوراً وذاع صيته، ويقال أن نجمة طلبت أن يكون حاضراً ليلة

---

[1] ثريا التجاني: دراسات اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري واد سوف نموذجا، دار هومة ، د ط، د ت ، ص15.

عرسها وتلقى الدعوة منها ، جاب الله لم يتمالك نفسه وارتجل قصيدة (البوغي) التي تغزل فيها بنجمة أمام الملأ وروى القصة كاملة، وهنا غادر أصدقاؤه وتركوه لحتفه حيث طعن جاب الله بمجرد انتهائه من القصيدة فيما ألقت نجمة نفسها من أعلى الشرفة، ومن ثمة ظلت القصيدة متوارثة إلى حد الساعة »[1]

كما نجد خالد بطل رواية ذاكرة الجسد يلجأ إلى هذه الحكاية وذلك من خلال " كاتب ياسين" ، هذا الذي أبدع في تصويره للقصة الغرامية القسنطينية « ــ والتي قيل أنه جَسد الجزائر في نجمة خلال الحقبة الاستعمارية، وهناك من يقول أنه يعكس نجمة عزيزة بايات قسنطينة في الفتاة التي أحبها ـ »[2] إذ يحاول خالد أن يبين أن لقصته الغرامية مع حياة، جذور قديمة وكأن هذه المدينة مقدر لها أن تعيش هذه القصص الحزينة التي تتوارثها أباً عن جد .

4 ـ 3 المثل الشعبي: هو عبارة عن مقولات متداولة ، تحمل في طياتها معاني و حكم، تلخص لقصص نسجت في الماضي، يتناولها الناس للتعبير عن مواقف في حياتهم اليومية للعبرة ، كما أن لكل جماعة معينة أمثالها ، بحيث أن لكل مثل شعبي له بيئته الخاصة به، إذ يختلف من بيئة إلى أخرى.

---

[1] ينظر ردينة عبد الجليل: حكاية حب من التراث الشعبي القسنطيني، مجلة مقام، الجزائر، ع 1أفريل، 2015 م ، ص 12.

[2] المرجع نفسه: ص 12.

« يقول إبراهيم النظام في وصف المثل: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام، إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه و جودة الكتابة، وهو نهاية البلاغة ، والمثل هو القول الذي لكثرة جريانه على ألسنة الناس اكتسب قيمة تعبيرية خاصة جعلتهم - عند تشابه الحال - لا يجدون أبلغ منه و أوجز لوصف ما بأنفسهم والتعبير عن مرادهم »[1]

كما جاء في تعبير آخر للفارابي إذ يقول:« هو ماترضاه العامة والخاصة في لفضه ومعناه، حتى ابتذلوه فيما بينهم واقتنعوا به في السراء و الضراء، ووصلوا به إلى المطالب القصية، فيما بينهم، وهو أبغ الحكمة لأن الناس لا يجتمعون على ناقص »[2]

ويذهب العسكري في شرح معنى الضرب للمثل إذ يقول: « وضرب المثل جعله يسير في البلاد، من قولك ضرب في الأرض، إذ سار فيها[...] و يقولون الأمثال تحكي، يعنون بذلك أنها تضرب على ما جاءت عن العرب ولا تُغير صيغتها »[3]

وكثيرا ما كان توظيف الأمثال الشعبية في السرد الروائي، إذ يستعين بها الروائي لنقل الحوادث في ذهن القارئ بصورة واضحة ومقربة، لتبين للمتلقي أنها محاكاة للواقع

---

[1] إبراهيم عبد الحافظ: دراسات في الأدب الشعبي، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة ، ط1، 2013 م ، ص 78.

[2] جمال طاهر، داليا جمال طاهر: موسوعة الأمثال الشعبية، د ط، د ت، ص25.

[3] العسكري: (أبي هلال بن عبد الله بن سهل العسكري)، جمهرة الأمثال، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988 م، ج1، ص11.

بالحياة العادية، وهكذا يُشحن النص بمجموعة من الأمثال الشعبية تتوافق مع سيرورة الرواية ومواضيعها، فتبعث هذه الأخيرة الانبساط في نفسية القارئ، كما تساهم في امتزاج الأقطار العربية من خلال هذا التبادل الثقافي، ففي كل من رواية " الزلزال " و" ذاكرة الجسد" كان المثل حاضراً، لتفجير تلك الدلالات الغائرة في اللغة الفصحى، حيث كان المثل أثر إصابة في نقل الوقائع بحذافيرها. وقد حاولنا إحصاء بعض الأمثال الشعبية وشرحها على النحو التالي :

جدول يوضح الأمثال الشعبية المستعملة في الروايتين:

الرواية	المثـــــــل	شـــرحـــــــه	الصفحة
ذاكرة الجسد	1/الجبال وحدها لا تلتقي:	و يضرب هذا المثل عادة في ذلك التصادم الذي يجمع بين اثنين يمتلكان نفس القوة أو نفس القدرات.	ص97
	2/الطير الحر ماينحكمش، وإذا أنحكم ..ما يتخبطش!	ويضرب هذا المثل في المواقف الحاسمة والتي تأتي على الشهامة.	ص228
	3/ كِي تجي تجيبها شعرة... و كِي تروح تقطّع السلاسل	يضرب هذا المثل لقضاء الله وقدره، وللاستسلام لكل ما تحمله الحياة للإنسان من فرح أو حزن.	ص244

	4/ واحد عايش في الدنيا... وواحد يوانس فيه.... !	يضرب عادة عند الفوارق بين الناس.	ص310
	5/ إنّ ما يفعله الرجال.. طرّز على أكتافهم !	هذا المثل يضرب للرجال الذين يسجلون مواقفاً في حياتهم تبقى دائماً تُذكر لهم.	ص314
	6/ إفكروا... وإلا الله لا يجعلكم تفكّروا...	يضرب هذا المثل كدعوى للمثابرة في الحياة، للوصول إلى المبتغى.	ص344
	7/ اللّي خطف.. خطف بكري ..	يضرب هذا المثل لمن فاته شيء كان يسعى إليه ولم يحققه.	ص368
	8/ يبقى زيتنا في دقيقنا ..!	ويضرب هذا المثل للقرابة .	ص349
	9/ما تقول أنا..حتّى يموت كبار الحارة !	يضرب هذا المثل للتقدير والاحترام وإبراز المكانة.	ص355
الزلزال	1/ اليد قصيرة والعين بصيرة .	ويضرب عند الرغبة في شيء لكن لا نستطيع الحصول عليه.	ص41
	2/ الشر يعلم السقاطة والعري يعلم الخياطة .	ويضرب للظروف التي تُحتمْ على الإنسان ما هو عليه.	ص42
	3/ عندما تطلقها لا تقترح عليها من تتزوج.	ويضرب هذا المثل للإنسان الذي يقطع الأوصال في نفس الوقت يبقى يتردد عليها.	ص48
	4/ يخلف على الشجرة ولا يخلف على قصاصها.	يضرب هذا المثل لِبث الصبر في نفس الإنسان .	ص51
	5/ لوكان يحرث ما باعوه	يدل هذا المثل عند فقدان الأمل	ص84

		في الشيء.	
	6/حنان الدجاجة بلا رضاعة .	يضرب عند النفاق بين الناس لتأدية المصالح .	
	7/ لا ينقص القرد سوى الساعة.	يضرب هذا المثل للشخص الذي ينقصه الكثير لكي يصل إلى الصورة التامة، بينما يبحث في أتفه الأسباب.	ص95
	8/ من لم يشبع من القصعة لا يشبع من لحسها.	يضرب هذا المثل على فاقد القناعة .	ص135

هكذا هي الأمثال في عمومها تتنوع وتمس شتى المواضيع « على هذا التنوع والتعارض في الأسلوب ليس سوى انعكاس لعالم الاهتمام الروحي الشعبي الذي يدعو إلى خلق المثل، ففي هذا العالم تعيش تجارب الناس بوصفها وحدات متنوعة منفصلة، فينجم عن ذلك التعبير عنها في شكل لغوي [...] مكونا تكويناً منطقياً يربط النتيجة بالمقدمة» [1]

[1] نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، د ت، ص181.

4 ـ 4 اللباس: يمثل اللباس موروث ثقافي تتزين به المدن بحيث يعكس أصالتها المتجذرة على مر الأزمان، كما يحدد الانتماءات الجغرافية بين الناس أين يشكل تنوعاً تعدد بتعدد المناطق، فهو نشاط إنساني يعبر عن ثقافة وتراث أمة معينة، وإذا ما رحلنا إلى مدينة قسنطينة وجدناها مدينة غنية عن التعريف في مجال اللباس التقليدي، حيث تعرف حضارة يُشهد لها في ربوع الوطن كافة، توارثتها جيلا بعد جيل و أتقنت في الحفاظ عنها لذا بقيت صامدة إلى عصرنا هذا، وعلى النحو الذي وجدت عليه ، وهذا دليل على مدى تمسك أهل المدينة بكل ما له صلة بهويتها.

وتستند الرواية القسنطينية في حركة الأحداث وانتقالها من مكان إلى آخر، ومن زمن إلى آخر على اللباس التقليدي ، وكان من بين هذا الأخير (الملاية السوداء) والتي تشكل جزءاً لا يتجزأ من المدينة ، حتى بعد تعاقب الزمن وانحلال الأجيال، إلا أن « نساء المدينة يحترفن لباس (الملاية السوداء) رغم تراجع هذه العادة وبقائها عند نسبة من كبار السن على وجه الخصوص، وحكاية انتشار الملاية السوداء لدى نسوة المدينة اختلفت الروايات حولها إلا أن الرواية الأكثر تداولا، ترجع إلى رحيل الحاكم (صالح باي) فهي تعبر عن لوعة الفراق وشدة حزن أبناء المدينة على ذلك الحاكم »[1] إذ تقول الرواية على لسان خالد بن طوبال: « **ربَّما كان أوّل ما لفت نظري ذلك**

---

[1] بومدين بلكبير: قسنطينة شذرات من الذاكرة، ص 93.

الصباح، ذلك الزيّ الموحّد لتلك المدينة التي تستيقظ كما تنام بحزن غامض[...] النساء ملفوفات بملاءاتهنَّ السوداء التي لا يبدو منها شيء سوى عيونهنّ »[1] فهذا اللباس يجمع بين اثنين، ألم المدينة وحزنها و حشمة المرأة وحياءها، أين تحفظُ مكانتها التي خصها الله بها، وهكذا يعكس هذا النوع من اللباس بواعث الإسلام في المدينة.

تحاول الكاتبة من خلال اللباس في الرواية أن تضيق نطاق المدينة من الكل إلى الجزء، بحيث تَفصلها عن كل الانتماءات، فتصبُ اهتمامها على لُبِ أصالتها، يقول خالد: « **ثوبك المطرّز بخيوط الذهب، والمرشوش بالصكوك الذهبيّة، معلّقة شعر كتبتها قسنطينة جيلاً بعد آخر على القطيفة العنابيّ** »[2] فهي لم تقف عند هذا الزي التقليدي فقط، بل تطرقت إلى ذلك الفن الدفين في التراث القسنطيني، والذي تعود جذوره للدول العثمانية، فحفظه أبناء المدينة و أتقنوه وتوارثوه جيلاً بعد جيل .

عمدت الرواية إلى نوعٍ آخر من اللباس آلا وهو الحليّ، بحيث عبرت الفتاة أحلام عن المرأة القسنطينية والعربية بأدق تفاصيلها، يقول خالد في الرواية: « **وقبل أن تصلني كلماتك... كان نظري قد توقَّف عند ذلك السوار الذي يزيّن معصمك العاري الممدود نحوي. كان إحدى الحليّ القسنطينّية التي تُعرف من ذهبها الأصفر المضفور، ومن**

---

[1] ذاكرة الجسد: ص312.

[2] ذاكرة الجسد: ص 360.

نقشها المميَّز. تلك (الخلاخل) التي لم يكن يخلو منها في الماضي، جهاز عروس ولا معصم امرأة من الشرق الجزائري »[1] فهذه الحليّ رموز لمدينة قسنطينة، تجد فيها المرأة طريقا إلى أنوثتها بحيث تتزين بها لتتميز عن غيرها، فذلك السوار و تلك الخلاخل ما هي إلا جزء من الأصل تتمسك به نساء المدينة بتوصية من الأمهات، وعادة ما تكون هذه الحليّ قديمة جداً في صنعها، لذا تجدها تتداول على بنات العائلة في المناسبات الخاصة فقط. وهكذا كان السوار أول ما حرك ذاكرة خالد، وعاد به إلى الماضي إلى قسنطينة إلى أمه التي كان السوار لا يفارق معصمها حتى أنها ماتت وهو في معصمها، « يستيقظ الطفل بنفس الرجل، يعثر على المقياس المفقود فيرتبط به ارتباطاً شديداً، ويرتبط بصاحبته ولم يكن قبل اليوم يدري أن هذا السوار يمثل رمز الأمومة في ذاكرته، ولكنه حين يكتشف هذا تنفجر بداخله الذكرى وتستيقظ الأحاسيس النائمة» [2]

كما تعرض رواية " الزلزال " بعض ملامح اللباس لكن خصت في عمومها الرجالي أكثر منه النسائي. ربما لأن الرواية في عمومها تركز على شخصية رجولية، فكانت تتأرجح في سردها للأحداث بين الماضي والحاضر، حيث الفوارق كانت بين الزمنين واضحة يقول الشيخ عبد المجيد بوالارواح: « **كان أبي، يلبسني جبة**

---

[1] ذاكرة الجسد: ص 53.

[2] صالح مفقودة: المرأة في الرواية الجزائرية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2003، ص181.

بيضاء، وشاشية تونسية عليها عمامة حريرية، ويأتي بي إلى قسنطينة »[1] فهذا هو السائد آنذاك، العمامة البرنس....واللافت للانتباه أن اللباس الرجالي أخذ في التلاشي مع مرور الزمن، فقلما نجد رجلا في الشارع يحافظ على هذا النوع من اللباس.

[1] الزلزال: ص 145.

خاتمة

من خلال هذه التجربة الروائية التي تبناها كل من "الطاهر وطار" و"أحلام مستغانمي" المستندة في سردها على الفضاء المديني، المرتكزة على مدينة قسنطينة تحديداً، وعبر دراستنا هذه التي تنتهي إلى كشف بواعث وتوظيف المدينة في الرواية العربية انطلاقاً من قسنطينة كنموذج ، نستطيع أن نخلص إلى النتائج التالية:

- إن المدينة في حدها العام تأخذ صفة الإجمال، من خلال معايير للتصنيف تؤطر للنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية
- إن المدينة كموضوع للدراسة في السرد العربي تعرف حضوراً شحيحاً عكس الأجناس الأدبية الأخرى كالشعر مثلا.
- توظيف المدينة في الكتابات الأدبية يؤمن للكاتب مساحة جغرافية واسعة تساعد في عملية الخلق الفني من خلال توحيد الأفكار وتشجيعها باعتبارها مادة خصبة تساهم في مواكبة العصر.
- يعد المكان مادة مؤسسة للفضاء المديني بحيث يقوم بتنشيط حركة الأحداث، كما أن غيابه يبعث على الغموض.
- إن المكان يعبر عن التجربة التي يحاول الكاتب نقلها، ومن ثمة يُخصص لبيئة معينة بكل أبعادها.
- يتقاطع المكان في الروايتين على ثنائية الماضي والحاضر.
- أثرت مدينة قسنطينة في شخصية الكاتبين فصارا امتداداً لها دون أن يشعرا

- لعبت الروايتان دور التوثيق التاريخي والجغرافي لقسنطينة بحيث تعدان أرشيفاً لكل ما تزخر به هذه المدينة من مقومات.
- تولي كل من الروايتين الاهتمام بالأماكن المفتوحة أكثر من الأماكن المغلقة، مثل الجسر الذي على الرغم من تعدد الأمكنة إلا أنه عرف حضوراً خاصاً.
- تذهب قسنطينة من خلال سرد الأحداث إلى أكثر من بعد رمزي: الوطن, الأم, المرأة.....الخ
- نظام الشخصيات في رواية ذاكرة الجسد جاء مضبوطا بعناصر معينة عكس رواية الزلزال التي عرفت تنوعاً في الشخوص.

الملاحق

❖ لمحة حول الطاهر وطار:

الطاهر وطار(1936 ـ 2010)

كاتب جزائري ينحدر من أسرة أمازغية تفقه في معهد الإمام عبد الحميد ابن باديس سنة 1952 كما درس في جامع الزيتونة سنة 1954 و في سنة 1956 انضم إلى جبهة التحرير الوطني ظل يعمل في صفوفها حتى 1994.عمل في الصحافة التونسية، لواء البرلمان التونسي والنداء، كما أسس في 1962 أسبوعية الأحرار بمدينة قسنطينة، وأسس أسبوعية الجماهير بالجزائر العاصمة و في سنة 1973 أسس أسبوعية الشعب الثقافي، نال جائزة الشارقة لخدمة الثقافة العربية سنة 2005.

❖ مؤلفاته:

المجموعات القصصية:

- دخان من قلبي
- الطعنات
- الشهداء يعودون هذا الأسبوع

المسرحيات:

- على الصفة الأخرى
- الهارب
- الشهداء يعودون هذا الأسبوع

الروايات:

- اللاز

- الزلزال
- الحوات والقصر
- عرس بغل
- العشق والموت في الزمن الحراشي
- تجربة في العشق
- رمانة
- الشمعة والدهاليز
- الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي
- الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء
- قصيدٌ في التذلل

❖ملخص رواية الزلزال:

تدور أحداث رواية الزلزال في يوم واحد وفي مدينة واحدة بطلها شخصية واحدة (الشيخ بوالارواح) قدم مدينة قسنطينة بحثاً عن أقربائه الذين انقطعت بينه وبينهم الصلة منذ زمن طويل، وجاء مشروع الثورة الزراعية ليحرك الرغبة في الشيخ لإحياء هذه الصلة حتى يقطع الطريق بين الحكومة وأراضيه، لكن صدمته كانت عنيفة فقد بحث طويلا ولم يعثر على واحد منهم ، وهكذا تحول البحث إلى مواجهة بينه وبين المدينة التي أصبحت تتحداه وتشعره بالقرف إلى أن أرسلته إلى مستشفى الأمراض العقلية.

❖ **لمحة حول الروائية أحلام مستغانمي:**

أحلام مستغانمي(13 أبريل 1953):

كاتبة جزائرية ترجع أصولها إلى مدينة قسنطينة، عرفت في الإذاعة الوطنية وذلك عبر برنامج " همسات " مما خلق لها شهرة كبيرة كشاعرة ، نالت شهادة الدكتوراه من جامعة السربون حـازت علـى جـائزة نجيـب محفـوظ للعـام 1998.

❖ **مؤلفاتها:**

- على مرفأ الأيام ـ 1973.
- ذاكرة الجسد ـ 1993.
- فوضى الحواس ـ 1997.
- نسيان com ـ 2009.
- قلوبهم معنا وقنابلهم علينا ـ 2009.
- الأسود يليق بك ـ 2012.
- ديوان عليك اللهفة ـ 2014.

❖ **ملخص رواية ذاكرة الجسد:**

تدور أحداث الرواية حول رسام يدعى " **خالد بن طوبال** " فقد ذراعه أثناء الحرب، يقع في غرام فتاة جميلة تدعى " **حياة** " هي ابنة مناضل جزائري كان صديقاً لخالد أثناء ثورة

التحرير، لكن والدها قتل أثناء الحرب التحريرية الكبرى ضد الاستعمار الفرنسي للجزائر.أما هي فتغرم به دون اعتراف منها بذلك، و مع ظهور صديق له يدعى زياد وهو مناضل في الثورة الفلسطينية تتشابك الأحداث بينهما (خالد و حياة) لكن و في الأخير تواجه تقاليد مجتمعها و ستتزوج بشخصية كبيرة و ذات نفوذ ضخمة في الحكومة الجزائرية، هذا الزواج و ظروف أخرى قاهرة يمر بها خالد ستتسبب في انهيار كلي لحياته.

« قصيدة البوغي »

لجاب الله ملحمة الحب والموت حكاية من التراث الشعبي القسنطيني (نجمة) والتي دارت وقائعها بمدينة قسنطينة

و انا بالبغـــية تقـــوى غرامـــي ... أهلكنـــــي يـا سابـــغ الشـــــفر
نتبـــع فـــــي مرضـــك والـــــع ... بعـــد مـــا رقـــدت هـــمـــومـــــي
وتبـــت علـــى الاريـــــام والخـــمر ... قـــــلـــــت انـــا للـــه راجـــــع
الليـلـــــــة بثـتـــي ســلامـــــي ... و جـــــاء ليـا مرسـول بالخبـــر
حـدثـــــنـــي بلفـظ الشنـــايـــع ... عـدت نخمـم فـــــي نجـــامـي
و هـا فـي العقـل ولا وجـد صبـر ... سقـطـــوا مـــن عينـــــي لـمدامع
والـــــعقل يـــغدى ليـه وســـــايع ... الـــله يـــا ســـــــــود الريمـــــي
يـــا من يفهـم دا الجواب يصنت ليا ... نعلمكم ما يصـير على كحل الحاجب
عدينا زهو أنا و ولفي فـــي الدنيـــا ... لا يلزم بي نحبس عن أمري يا صاحب
نعلمكم قصتـي وسبـايب دا النفيـــة ... هـــودت للبستان نغسل عقلي طارب
نلقـتى جماعـة زاهييـن نادوا علي ... حلفوني باليمين جزت لقداهم نـزارب
نلقـى خـوذ مشـهرين وصفرة منشية ... كلهـــــم مـــتماثليـــن ولاد مضـــارب
كـل آخر اجبـد سـالف ولفه يا خويا ... و انا الممحون صار دمعـي يـسكب
فزيت فالحين زدت لعبـــــوا رجـليا ... غيبت على اقداهم وجزت للزينة زارب
قلتلها جيتـــك بغيـظ نـاري مقديـــة ... تعـطينـــــي مـا يـتوالـم ويـنـاسب
قالتلي والله ما يفيدك بخلف القطايع ... اديها وافخر على جميـع من يصحب
ظفرتها لي بالجوهر النفوسي من غاية ... حطـــت فيها حجرتين كالبرق الـلاهب
دربتـها لي بالحزام لـن وصلت لـتيا ... كمثل الثعبان صـــرت نمشي و نـزارب
حين وصلت شور الرجال لا لوم عليا ... قالوا لـي وين غبت عنا يا صـــاحب
قـــلـت لـــهم ابـطل مـــنـــــامـــي ... و هـــدف ليـا فكـــر كـــــــالبـحر

صالح باي

الملاية السوداء حكاية الحزن الدفين في مدينة قسنطينة

ضريح الولي الصالح سيدي راشد

قنطرة الحبال أحد جسور مدينة قسنطينة

الملاية السوداء حكاية الحزن الدفين في مدينة قسنطينة

ضريح الولي الصالح سيدي راشد

قنطرة الحبال أحد جسور مدينة قسنطينة

قائمة المصادر والمراجـــع

* القرآن الكريم برواية ورش عن نافع .

1 ــ الكتب باللغة العربية والمترجمة:

- **إبراهيم رماني:**

1) المدينة في الشعر العربي (الجزائر نموذجاً)، دار هومة، الجزائر،ط2، 2001م.

- **إبراهيم عبد الحافظ:**

2) دراسات في الأدب الشعبي، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2013 م.

- **أحلام مستغانمي:**

3) ذاكرة الجسد، دار الآداب، بيروت، ط 27، 2011 م.

- **أحمد سيد محمد:**

4) المختار في الأدب والنصوص و النقد والتراجم الأدبية، المعهد التربوي الوطني، الجزائر، د ط، د ت.

- **أحمد فضل شبلول:**

5) الحياة في الرواية العربية(قراءات في الرواية العربية والمترجمة)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، د ط، 2001 م.

- **الأخضر بن السايح:**

6) سطوة المكان وشعرية القص (في رواية ذاكرة الجسد) دراسة في تقنيات السرد ، دار عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط1 ، 2011 م .

- **ثريا التجاني:**

7) دراسات اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري واد سوف نموذجا، دار هومة، دط، د ت.

- **جمال طاهر، داليا جمال طاهر:**

8) موسوعة الأمثال الشعبية، د ط، د ت.

- **الحافظ أبي محمد الخلال:**

9) كرامات الأولياء ، تحق الشيخ أسامة الشريف ، دار المشاريع ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2007 م.

- **حسن حمودة:**

10) الرواية والمدينة(نماذج من كتاب الستينات في مصر)، شركة الأمل للطباعة والنشر، د ط، 2000 م.

- **عبد الحميد بورايو:**

11) منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية الحديثة) ،ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، د ط ،1994 م .

- **رابح العوني:**

12) أنواع النثر الشعبي، منشورات جامعة باجي مختار،عنابة ، دط، د ت .

- **الرازي: (محمد ابن أبي بكر عبد القادر الرازي)**

13) مختار الصحاح، مكتبة لبنان، د ط، لبنان، 1986 م.

- **سالم المعوش:**

14) المدينة العربية بين عولمتين، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2006 م .

- **سميرة زغبيب:**

15) المالوف من الأندلس إلى قسنطينة، دار مداد، ط1، 2009 م .

- **صالح مفقودة:**

16) أبحاث في الرواية العربية، دار الهدى، ط1، عين مليلة، الجزائر، 2008.

17) المرأة في الرواية الجزائرية، دار الهدى، عين مليلة ، الجزائر، ط1، 2003م .

- **صلاح صالح:**

18) المدينة الضحلة (تثريب المدينة في الرواية العربية)، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ، ط1، 2014 م.

- **الطاهر وطار:**

19) الزلزال ، دار موفم للنشر ، الجزائر ، د ط ، 2004 م .

- **عزام أبو الحمام المطور:**

20) الفلكلور(التراث الشعبي)، الموضوعات، الأساليب، المناهج، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008 م .

- **عز الدين جلاوجي:**

21) الرماد الذي غسل الماء، دار الروائع للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 4، 2010 م.

- **العسكري: (أبي هلال بن عبد الله بن سهل العسكري)**

22) جمهرة الأمثال، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ج1، 1988 م.

- **علي العلوي:**

23) الذات المغتربة والبحث عن الخلاص، دار الوطن، الرباط، المملكة المغربية، ط1، 2013 م .

- **غاستون باشلار:**

24) جماليات المكان، تر غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1984 م.

- **فاروق أحمد مصطفى، مرفت العشماوي عثمان:**

25) دراسات في التراث الشعبي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 2008.

- **فتيحة غزالي، دليلة مكسح:**

26) فعاليات الأغنية الشعبية في تحريك أحداث الثورة التحريرية بمنطقة جمورة، دار علي بن زيد للطباعة والنشر ، بسكرة، ط1، 2012 م .

- **عبد القادر بوعرفة:**

27) المدينة والسياسة(تأملات في كتاب الضروري في السياسة لابن رشد)، عالم الكتب الحديث، إربد ، الأردن، ط1، 2003 م .

- **ابن كثير:(عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي)**

28) مختصر تفسير ابن كثير، تحق محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط1981،7م.

- **عبد الكريم الجبور:**

29) الإبداع في الكتابة والرواية، دار الطليعة الجديدة، دمشق، سوريا، ط1، 2003 م.

- **كمال غربي:**

30) المساجد والزوايا في مدينة قسنطينة الأثرية ، دار ذاكرة الناس للنشر، د ط ، 2012 م .

- **عبد الله الخطيب:**

31) النسيج اللغوي في روايات الطاهر وطار، دار فضاءات للنشر والتوزيع، الأردن ، ط 1 ، 2008 م .

- **عبد الله رضوان:**

32) البنى الشعرية (دراسات تطبيقية في الشعر العربي)، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، د ط، 2005 م .

- **مجمع اللغة العربية:**

33) المعجم الوجيز، وزارة التربية والتعليم، مصر، د ط، 1994 م.

- **محمد حسن عبد الله:**

34) الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 2001 م.

- **محمد عبد الستار عثمان:**

35) المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 1988 م.

- **محمد الماوي المعروف:**

36) مدينة قسنطينة (دراسة في جغرافية العمران) ديوان المطبوعات الجزائرية، بن عكنون ، الجزائر ، دط ، 1984 م.

- **محمد المهدي بن علي شغيب:**

37) أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث ، قسنطينة، الجزائر، د ط ، 1980م .

- **مصطفى فاسي:**

38) دراسات في الرواية الجزائرية ، دار القصبة ، الجزائر ، دط، 2000 م.

- **عبد الملك مرتاض:**

39) في نظرية الرواية ، دار عالم المعرفة ، الكويت، دط ، 1998 م.

- **ابن منضور:**

40) لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1990 م، مج 13.

- **نبيلة إبراهيم:**

41) أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة و النشر والتوزيع، القاهرة، ط1، د ت.

- **واسيني الأعرج:**

42) كتاب الأمير، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، ط1، 2004 م.

- **وزراعة الإعلام والثقافة:**

43) خطب الرئيس بومدين، نشر وزراعة الإعلام والثقافة ، الجزء الرابع ، الجزائر، 1972 م.

- **ياسين النصير:**

44) الرواية والمكان (دراسة المكان الروائي)، دار فينوي، سوريا، دمشق، ط 2، 2010 م.

- **يوسف الحنبلي: (الإمام يوسف بن حسن بن عبد الهادي المقدسي الدمشقي الحنبلي ت 909هـ)**

45) صب الخمول على من وصل أذاه إلى الصالحين من أولياء الله، دار النوادر، الكويت، ط1، 2007 م.

2 ــ الرسائل الجامعية:

- **إيمان غالب شعبان مرقة:**

46) المدينة في شعر سميح القاسم، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، 2006م.

- **سعدية بن يحي:**

47) دلالة المكان في رواية عابر سرير لأحلام مستغانمي ، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر ، 2008/2007 م.

- **الصالح لعريبي:**

48) البيئة الحضرية داخل الأنسجة العمرانية العتيقة والتنمية المستدامة (حالة قسنطينة) رسالة ماجستير ، جامعة المسيلة ، 2009/2008 م.

- **فضيلة بولجمر:**

49) هندسة الفضاء في رواية الأمير لواسيني الأعرج، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010/2009 م.

- **قمرة عبد العالي:**

50) البنية الزمكانية في رواية الرماد الذي غسل الماء لعز الدين جلاوجي (دراسة تحليلية تأويلية)، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012 م.

- **مريم بغيبغ:**

51) قسنطينة في الرواية الجزائرية المعاصرة ، رسالة ماجستير ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2010/2009 م.

- **نبيلة بونشادة:**

52) بنية النص السردي في رواية(غدا يوم جديد) لعبد الحميد بن هدوقة، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005/2004 م.

- **هنية جوادي:**

53) صورة المكان ودلالاته في روايات واسيني الأعرج ، رسالة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، بسكرة ، 2013/2012 م.

3 ــ المجلات والدوريات:

54) مجلة الأثر: سوريا، 24 فيفري،2011 م.

55) مجلة التبين الجاحظية: الجزائر ، ع 16، 2000 م.

56) مجلة العربي: الكويت، ع671 أكتوبر، 2014 م.

57) مجلة العلوم الإنسانية: كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة ، الجزائر،ع 28/27 نوفمبر، 2012 م.

58) مجلة العلوم الإنسانية: كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر الجزائر، بسكرة، ع 13، 2000 م.

59) مجلة المخبر: كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ع 6 ،2010 م

60) مجلة المخبر: كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع8 ،2012 م.

61) مجلة مقام: الجزائر،ع 1 أفريل ، 2015 م.

فهرس
الموضوعات

مقدّمة.....أ-د

الفصل الأول: الرواية وتيمة المدينة.....05-47

1- تعريف المدينة.....05

1-1-المدينة لغة.....05

1-2-المدينة اصطلاحاً.....08

2 ـ المدينة فضاء إبداعي.....13

2 ـ 1 المدينة الوفرة والتنوع.....14

2 ـ 2 المدينة التمزق والضياع.....16

3 ـ المدينة و الرواية.....19

3 ـ 1 المدينة في الرواية العربية.....20

3 ـ 2 المدينة في الرواية الجزائرية: 23

الفصل الثاني: قسنطينة الذاكرة الحضارية.....30-90

1 ـ قسنطينة الذاكرة.....30

1-1-الصخرة 30

1 ـ 2 سيرتا.....33

1 ـ 3 صالح باي.....36

1 ـ 4 ابن باديس.....41

1-5- المساجد والأولياء الصالحون.....42

1 ـ 6 البيت العائلي.....48
2 ـ قسنطينة البعد الحضاري.....502
ـ 1 الجسور.....50
2 ـ 2 الشوارع.....572
ـ 3 المقاهي.....61
3 ـ قسنطينة الوجه الآخر.....65
3ـ 1 السجن.....65
3 ـ 2 المقبرة..... 70
3 ـ 4 واد الرمال.....72
4– قسنطينة التراث.....74
4 ـ 1 الأغنية الشعبية..... 76
4 ـ 2 الحكاية الشعبية.....81
4 ـ 3 المثل الشعبي..... 83
4 ـ 4 اللباس:.....87
الخاتمة.....92
الملاحق.....95
قائمة المصادر والمراجع..... 105
فهرس الموضوعات..... 114

ملخص:

يتناول موضوع البحث « قسنطينة بين روايتي " الزلزال و ذاكرة الجسد" ـ دراسة موازنة ـ » إذ نحاول من خلال هذه الدراسة الوقوف عند الفضاء المديني داخل الرواية العربية مستندين في ذلك على مدينة " قسنطينة " انطلاقا من بصيرة كل من " الطاهر وطار" و" أحلام مستغانمي" بحيث يلجأ كل منهما إلى تصوير المدينة وفق منضروه الخاص فتخرج من إطارها المكاني الضيق، لتتعدى إلى كل البواعث الاجتماعية والحضارية.

واستهدف البحث مجموعة من التعاريف للمدينة وذلك من خلال الرواية وتيمة المدينة، فكان لنا وقفة للمدينة عبر الوفرة والتنوع وكذا التمزق والضياع ومن ثمة تمظهرات المدينة في الرواية العربية.

وبناءاً عليه تطرقنا إلى مدينة قسنطينة عبر البعد القسنطيني في الروايتين وهذا بغية استنزاف صورها وما تحيل إليه من دلالات في الرواية.

Résumé:

Le sujet de notre exposé traite «Constantine étude entre la mémoire du corps et le séisme» Nous voudrons, à travers cette étude , mettre l'accent sur l'espace de la ville dans le roman arabe en se basant sur la ville de Constantine suivant la vision de " Tahar Ouatar "et "Ahlam Mostaganeme" .Chacun d'eux essaie de donner une image sur la ville suivant sa propre perspective et de la faire sortir de son cadre spatial étroit pour dépasser tout ce qui est social et civilisationnel.

Cet exposé touche sans aucun doute en ensemble de définitions sur la ville et cela à travers le roman. Donc, nous avons une idée sur le civisme à traves la diversité et aussi la déchirure et la perte. La ville se manifeste dans le roman arabe.

En se basant sur l'étude précédente, nous avons visé la ville de Constantine à travers la mémoire civilisationnelle dans le but de mettre en valeur les images et les points positifs du roman.